٢١٨

HARLEQUIN®

روايات احلام

دموع ودماء

روبين دونالد

www.elromancia.com
مرمورية

دموع ودماء

لانث براون امرأة جميلة، حساسة، جريئة، لكن في داخلها يسكن رعب...

أليكس كونسيدين شخص غامض قدم إلى هذه البقعة النائية ليتخذ قراراً مصيرياً، ولن يضيّع وقته في التودد إلى أجمل امرأة قابلها في حياته وأشدهن تعاسة...

لا... يجب أن تبقى محرّمة عليه.. فمستقبله مشكوك فيه ولا يقدر أن يعرض عليها شيئاً.... وعلى أي حال، ستعدو لانث هاربة حين تكتشف أنه هو الأمير المفقود!

www.elromancia.com

روبين دونالد

تعيش «روبين» حتى الآن في «نورثلاند» في «نيوزلند».

أقامت أولاً في مزرعة والدها المنتجة للأجبان والألبان، ثم انتقلت إلى «باي أوف أيلندز» وهي منطقة ذات جمال طبيعي أخاذ، حيث تعيش هناك مع زوجها وكلبها. استقالت من مهنة التدريس حين اكتشفت أنها تفضّل عليها كتابة الروايات. والآن حين لا تكتب «روبين» فهي تقرأ أو نعتني بحديقتها أو تسافر أو تكتب الرسائل لولديها الراشدين وأصدقائها.

١ ـ الحدود الحمراء

لاحظت لانث براون وهي تنظر بانشداه عبر النافذة، أن المنظر جميل جداً.. رمل أبيض يبهر الأبصار، مياه شديدة الزرقة، وأشجار تتمايل بلطف.. كل ما كان ينقص، هو أهل الجزيرة الأصليون المتكاسلون، الذين يعيشون في هذه الجزر المبتسمة المغطاة بأشجار النخيل الاستوائي.

وهذا الامر ليس بغريب.. فهم لا يبعدون سوى ألفي كيلو متر إلى الشمال في هذا الجزء الشمالي من نيوزيلاندا.

نظرت لانث مقطبة إلى آثار الأصابع على معصمها، ثم انحنت لتدلّك ساقها التي تؤلمها.. فالرجل الذي أخرجها من ذلك الهدوء السماوي، ورافقها إلى هذا المنزل، كان نشيطاً جداً.. ارادت أن يوصلها إلى الداخل، إلى شخص آخر يستطيع أن يكلّمها، شاءت أم أبت.. في العادة، كانت لتمزقه إرباً بكلماتها.. لكن ليلة قضتها دون نوم، وشعورها بالسعادة لإغماض عينيها أخيراً، عطّل دماغها مؤقتاً.

لكنها الآن، بدأت تغضب.

تستطيع بالطبع أن تتسلق النافذة وتهرب.. لكنها لم تكن تحب الإذلال.. وفي مثل حالتها هذه، من السهل اللحاق بها وإلقاء القبض عليها.

تفحصت الغرفة بعينين ثاقبتين. ظهرت الفخامة فيها، وبدت متكاملة، مما أبرز غنى اصحابها وذوقهم الرفيع..

فكرت بسخرية: هذا المكان لا يشبه مكان إقامتها المتواضع، والذي قضت فيه السنوات القليلة الماضية.. كانت القمرة، في المركب الشراعي،

www.elromancia.com

صغيرة بحيث لو وقفت في وسطها لاستطاعت أن تلمس جدرانها الأربعة دون أن تمد جسمها.

وتلقائياً، ألقت بثقلها على ساقها السليمة. منذ خمس دقائق، كانت تغط في نوم عميق تحت ظل أشجار الصنوبر. لكن سحبتها من على بساطها يد شخص ما، بطريقة أفلام العنف، وتجاهل الشخص المجهول اعتراضها الشرس، ثم جرها إلى منزل لم تلاحظ وجوده.

تساءلت لانث مرتجفة، ترقباً للشر، إن كانت قد دخلت أحد تلك الأفلام؟

لا.. هذه نيوزيلاندا، وعرّابو المافيات لا وجود لهم هنا.

أحست بالرعب في مؤخرة عنقها.. ودون أن تتحرك.. أو أن تتنفس.. بذلت جهدها لتنظر من زاوية عينيها.. ورأت عند طرفها، ظل رجل طويل، نحيف، صامت، ينتظر. وشدّ مسام بشرتها ذعر مجنون، فصرت على أسنانها واستدارت.

كانت تتوقع رؤية ذاك الذي أجبرها على السير، لكن من وقف يراقبها بعينين ضيقتين باردتين، عينان شاحبتا اللون في وجه أسمر، جعل معدتها تنقبض، إذ كان يمثل تهديداً أكبر.

سألت بثبات: «من أنت.. وبأي حق تختطفني؟».

التمعت عيناه، إلا أن تعابير وجهه لم تتغير.. وسأل بتهذيب:

ـ أليس لديكم قوانين في نيوزيلندا تمنع التسلل إلى أملاك الغير؟

كان يتكلم كإنكليزي من خريجي جامعة أوكسفورد.. كل كلمة في محلها، وصوته عميق فظ حمل لكنة غريبة لم تستطع معرفة مصدرها.

بلغ طوله ستة أقدام، وكان بهي الطلعة، وجهه نحيل خشن متسلط، زاده بروزاً فك قوي وفم قاس جميل. إلا أن عينيه الزرقاوين كلون البحر، كانتا أكثر ما يلفت في وجهه، حتى طغت على قسماته السمراء.. تحت هذا المظهر الخارجي الصارم، شعرت لانث بحيوية وطاقة تسيطر عليهما ارادة قوية.

كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً، يتناسبان مع جسمه بأناقة. وأدركت

لانث المتوترة، أنه لو كان ارتدى بنطلوناً من الجينز وقميصاً من على حبل الغسيل مباشرة، لبدا مهيباً مخيفاً وخطيراً كما هو حاله الآن.

ولا بد أنها بدت عديمة الذوق في سروالها القصير القديم، وقميصها الواسع الباهت إلى درجة مزرية، لكنها رفعت رأسها وقالت:

ـ قوانين الدخول إلى أملاك الغير في نيوزيلاندا متساهلة.. على أي حال هذه البحيرات هي من المحميات.

ـ لكن ليس هذه بالتحديد، فالأرض المحيطة بها ممتلكات خاصة.. كما تعرفين جيداً.. لأنك تسلقت فوق بوابة مقفلة لتصلي إليها.

كانت لانث قد تساءلت حول هذا الأمر، لكن حاجتها إلى الوحدة كانت أعظم من استغرابها.. أخذت نفساً عميقاً، وللمرة الاولى منذ استفاقت في المستشفى وفي ساقها ما يزيد عن مئة غرزة، أحست أنها حية، وأن كل خلية فيها متنبهة وتفيض «بالأدرنالين».

ردت: «مهما كان الأمر.. فهذا لا يعطي حارسك الحق في معاملتي بخشونة.. كل ما يحق له هو أن يأمرني بأن أبتعد عن أملاكك.. فإذا رفضت، ربما أصبح لديه عذراً. ومن المنصف أن أنذرك بأنك مضطر لإثبات الضرر قبل أن تنظر أيّ محكمة في دعواك».

ـ يبدو أن من عادتك التسلل إلى أملاك الغير.

نظرت لانث إليه مجفلة، فأكمل: «فأنت تعرفين الكثير عن حقوقك».

كان في صوته مسحة سخرية أثرت على هدوئها. ردت بحدة:

ـ لقد عملت مرة، خلال الصيف، في إدارة الصيانة، حيث يتعلم المرء سريعاً كل شيء عن قوانين التسلل إلى أملاك الغير.. وحين جرني بالقوة إلى هنا، وضع رجلك نفسه في موقف خطير.

لم ترفع معصمها ليراه، ولم تنظر إليه. لكن نظرات الرجل تركزت على بشرتها، فشعرت وكأن شيئاً ما قد تفجر، ورماها بشظاياه، قبل أن تعود رموشه الطويلة السوداء، وتغطي عينيه من جديد.

سألها بصوت اقشعر له بدنها: «هل آذاك؟».

ـ لا.

تقدم عبر الغرفة بسرعة وصمت. وراقبته لانث بحيرة وهو يمسك بيدها، وينظر إلى معصمها.. أحست ببرد يعتريها، وأصابتها الرجفة.

قال ببطء: «لقد تسبب لك بكدمات».

أحست بالأسى، وقالت:

ـ أنا أصاب بالكدمات بسهولة، وهو لم يؤذني. في الواقع، تسبب بهذا حين تعثرت.. حاول منعي من الوقوع في الماء.

تلاشى صوتها، وهي تنظر إلى التناقض الواضح بين الأصابع السمراء، الملتفة بإحكام حول معصمها البيضاء الرقيقة. وحاولت انتزاع يدها، وهي تبتلع ريقها بصعوبة، فقاومها للحظة، ثم انفتحت الأصابع الطويلة وأصبحت حرة.. عندها، تراجعت خطوة متعثرة إلى الوراء وقد تأثرت بردة فعله، واستندت إلى إطار النافذة.

فقال بلهجة جدية خشنة وهو يحدق بها: «أنا آسف».

شعرت بالإثارة تسري على طول عمودها الفقري، فبذلت ما في وسعها لتتجاهلها، وقالت وكأنها تعظه:

ـ إنّ الأراضي التي تبعد عشرين متراً عن طرف الماء، وإن كانت من الاملاك الخاصة، هي في الواقع ملك للتاج.. ومخصصة ليصل الناس إليها.

فقال بصوت ناعم، محاولاً إخفاء سخريته:

ـ لكن لتصلي إلى العشرين متر، عليك أن تمرّي بأملاك خاصة.

ولكنه.. ليس إنكليزياً إذن.. وصاحت لانث، بلهجة واثقة:

ـ هذا محتمل، لكنني لم أكن أتسلل حين قرر ذلك الغبي أن يثبت أنه رجل ضخم وقوي، فجرّني إلى هنا.

كانت لانث متوسطة الطول، لكن ترددها على المستشفى خلال سنة، جعلها تفقد من وزنها.. بحيث أصبحت أنحف مما كانت عليه في السنوات الخمس الماضية.. ولم تكن أبداً كذاك الحارس الذي تشبه بنيته بنية لاعب الركبي.

ابتسم رئيسه، وقال: «سوف يعتذر».

كيف يمكن لحركة واحدة أن تحول متعجرفاً متعالياً إلى شخص له مثل هذه الفتنة؟ بدا وكأنه أمير من أمراء العصور الوسطى.. وتحول على الفور إلى رجل جذاب مذهل، إنما خطير.. مثقف، لكن بربري. أما قسماته الوسيمة فزادت من حدّتها قساوة قلب جلية.

تابع كلامه: «أنت على حق تماماً.. وأنا أعتذر عن مارك. فلم يكن يحق له أن يلمسك أو أن يجرّك إلى هنا».

أحست لانث بأن وراء هذا الوجه الفاتن عقل ذكي اختار على الفور مثل هذا الرد، لعلمه أنه سيهزها.. أيّ بكلمات أخرى، أنه يناورها.

وبعد أن ردت ابتسامته، بابتسامة أملت أن تكون متحفظة، قالت:

ـ النبوزيلانديون يحبون بلادهم، خاصة لأنهم قادرون على التنقل فيها كما يشاؤون.

ـ شرط خضوعهم لقوانين الريف؟ مثل البوابات المقفلة وما إليها؟

ردت، وهي تعرف أنها لم تترك خلفها بوابة مفتوحة: «طبعاً».

أطبقت رموشه السوداء ليضيق نظره، وقال:

ـ كي أعوض قليلاً عن تطفل مارك، هل لي أن أقدم لك شراباً؟ ثم أرافقك إلى سيارتك.

بتصلب، وبأعصاب لا تزال مشحونة من تأثير ابتسامته، قالت لانث: «لا.. شكراً لك.. لا أشعر بالعطش».

فقال بصوت مهدّىء: «أفهم أنك لا ترغبين في البقاء في منزل مررت فيه بمثل هذه التجربة الكريهة.. لكنني أود أن أظهر لك أنني لست رجل «مافيا» في إجازة».

رفعت نظرها إلى وجهه الساكن.. هل يمكنه أن يقرأ أفكارها؟ لا.. بالطبع لا..

قالت بسرعة، غير متوازنة: «أنا واثقة من أنك لست..».

ـ إذن دعيني أقدم لك تعويضاً ما.

الفتنة صفة نادرة، ومجحفة... فقالت على مضض، وبغضب، وساقها تهدد بالانهيار:

ـ لست بحاجة لأيّ تعويض.. لكنني أرغب في فنجان من الشاي.. شكراً لك.

ـ سيكون هذا من دواعي سروري.

ابتعدت عن النافذة، واتجهت نحوه وهي تعرج، متوقعة أن ترى دلائل الصدمة على وجهه.. لكن نظراته الزرقاء الصافية، بقيت ثابتة على وجهها، وأمسك مرفقها بطريقة عفوية.

اعتقدت أنه سيشحب حتى البياض حين يلاحظ آثار الجرح.. فقد اعتادت على هذا.

كانت الأصابع السمراء الطويلة على مرفقها تعطيها الثقة والدعم.. كما ترسل شرارات بطيئة في كيانها. لكنها، بالطبع، لم تسمح لنفسها بأن تتكىء عليه وهو يرافقها عبر الباب، إلى غرفة تخطف الأنفاس حيث الضوء المنبعث من البحيرة ينعكس بشكل رائع مذهل.

توقفت لانث فجأة وشهقت: «أوه!».

اشتد ضغط أصابعه للحظة على مرفقها ثم ارتخى: «ما الأمر؟».

أحست بالغباء، وشرحت بضعف: «لا شيء.. البحيرة تبدو رائعة من هنا».

حثها على التوجّه نحو مقعد مريح، وقال: «إنها تبدو رائعة من أيّ نقطة.. لقد سافرت كثيراً، لكنني لم أرَ شيئاً في مثل لون هذه المياه».

جلست لانث، وأبقت وجهها مواربا. كانت الأبواب الزجاجية المفتوحة تطل على شرفة واسعة وعلى شاطىء لامع.. قالت: «إنها بحيرة رملية.. والرمال البيضاء تعكس لون السماء بكثافة أكبر».

جلس على كرسي قربها، وقال: «مهما كان السبب، فهي جميلة.. نيوزيلاندا بلد رائع.. وتظهر الجبال في كل مشهد فيه».

ـ الجبال رائعة كخلفية للمناظر.. لكن مكانها هناك، وأنا أفضل شاطئاً

جميلاً دافئاً في أي يوم.

منذ سنة مضت، كانت تعني ما تقول.

تسببت نظرته المفكرة بابتهاج أثار اضطرابها وأخافها.. هاتان العينان الباردتان مختلفتان تماماً عن لون بشرته «المتوسطية» الدافئة. كانت البشرة البرونزية، والشعر الأسود المائل إلى الزرقة، تزيدان من حدة تأثير عينيه، فأحست بهما كزلزال مخيف لا مفر منه.. وقال بصوت مرح:

ـ تبدين وكأن لا شيء يخيفك.

ردت وهي تفكر، «لو أنك تعلم!»:

ـ أحب الدفء.. لقد ولدت في نيوزيلاندا لذا لست معتادة على الثلج.

ـ مع ذلك قد تكون المياه باردة.

حتى الآن، لم تهتم لأمر ساقها، لكنها تمنت بشدة لو أنها اختارت بنطلوناً طويلاً بدلاً من القصير. كانت تدرك بشاعة البشرة المتجعدة المشوّهة التي تمتد على طول ساقها تقريباً، وعلى الرغم من أن الجراحة التجميلية سوف تغير منظرها في المستقبل إلا أنها ستبقى موجودة، لتذكّرها بألم الماضي البشع.

قالت بجفاء: «هذا فقط إذا كنت ساذجاً بما يكفي لتستمر في السباحة بعد أن تبدأ بالارتجاف».

ـ ربما من طبيعة الإنسان أن يرغب في تطويع ما يهدده.

تحركت عيناه ببطء على وجهها، واستراحتا للحظة وجيزة على فمها الناعم، ثم ارتفعتا نحو شعرها المبعثر، بأمواجه العسلية الموشحة بخصل نحاسية لماعة..

انفتح الباب.. وراقبت لانث بقلق مارك، الحارس الأشقر ببنيته الصلبة الضخمة، يدخل حاملاً صينية الشاي.. لا بد أن مضيفها، كائناً من يكون، قد أصدر أوامره قبل أن يراها.. وتساءلت لانث عن سبب توترها من جراء هذا النفوذ.

وضع مارك الصينية على طاولة قريبة من مقعدها، ثم أدناها منها بحيث لم تعد بحاجة لأن تميل نحوها. ولاحظت وجود ابريقي شاي وقهوة معاً، مما

يعني أنه لم يترك شيئاً للصدف.

قال المضيف: «أرجو أن تتصرفي على حريتك».

- أجل.. بالطبع.

تراجع مارك إلى الوراء وقال بحدة:

- أنا آسف إذا كنت قد أخفتك.. لكنك كنت متسللة.

وبلهجة رسمية مماثلة، قالت لانث:

- حق الملكية لا يمنح حق المعاملة بخشونة.. لكنني أقبل اعتذارك.

واستجمعت أرق ابتسامة لها ووجهتها إليه، إلى أن تصاعد الاحمرار إلى وجنتيه.. فنظر بسرعة إلى رئيسه، الذي قال له: «شكراً لك، مارك».

فأحنى رأسه بسرعة، واستدار بحدة وغادر الغرفة.

ضحك المضيف بهدوء، وتمتم: «أنتم النيوزيلنديون!».

وبابتسامة مغتصبة، صبت لانث الشاي الذي تصاعدت منه رائحة قوية..

وأخذ فنجانه، وهو يسألها: «هل أنت من هنا أم في عطلة مثلي؟».

- أنا في عطلة.

- في منطقة المخيم؟

- لا.. بل أسكن في «باتش».

رفع حاجبه متسائلاً، فشرحت له:

- في نيوزيلندا، الباتش هو منزل شاطىء صغير، وضيع قليلاً.

نظرته المتفرسة قضت على حاجز ثقتها بنفسها الهش.. جاهدت لانث كي لا ترف عينيها كردة فعل.. فكلما نظر إليها تتحرك أحاسيسها بشكل غريب.. نوع من إحساس جاذب، يتحول بقسوة إلى شوق موجع.

وحدّثت نفسها بأن له على الأرجح التأثير القوي ذاته على أيّ امرأة دون المئة من عمرها، فهاتان العينان تخدّران الحواس... ولعله يستجوبها الآن بمكر... فإذا كان الأمر كذلك، فقد أخطأ بالخصم. لم يقل لها بعد من هو.. لذا لن تقول له شيئاً عن نفسها.

أحست أنها مهددة، فحاولت أن تدافع عن نفسها ولو بطريقة طفولية.

قاطع أفكارها بقوله: «آه.. تلك المنازل الصغيرة قرب المخيم».

- أجل.

- وهل كوخك ملك للعائلة؟

- لا.. بل لأصدقاء.

غيّر الموضوع بهدوء واثق، وقال:

- أرجو أن يبقى الطقس مثالياً رائعاً كما هو منذ أسبوعين.

- يجب أن يبقى هكذا. لكن نيوزيلندا كابوس لكل متنبىء بالطقس. فالبلاد طويلة إنما ضيقة، وهي تقع عند نقطة التقاء خط الاستواء، لهذا فالهواء البارد يهبّ علينا من القطب الجنوبي ومن كل الاتجاهات.. مع ذلك، فالوقت الآن منتصف الصيف، ومع شيء من الحظ سيبقى الطقس رائعاً حتى نهاية شهر شباط.

وكانت اللهجة التثقيفية في صوتها وسيلتها الوحيدة لتدافع عن نفسها ضد نظرته المتفرسة المقيمة.

أضافت: «بالطبع، هذا إذا لم يأتنا إعصار زائر. لقد زارنا اعصاران في موسم العطلات هذا، لكنهما اقتصرا على مطر غزير».

قال: «لنأمل إذن أن يحتفظ خط الاستواء بأعاصيره لنفسه».

وبهذا لم يشر أية إشارة إلى مدة بقائه هنا.

بعد هذا تحدثا بالعموميات.. حديث لا يعني شيئاً، ولا يكشف عن شيء... مع ذلك، سرى تحت سطح الكلام العفوي السلس، تيار أعمق وأكثر إثارة للتساؤلات.. وكلما نظرت إليه، كانت تجده يتأملها.

أخيراً وضعت لانث فنجانها الفارغ من يدها وقالت:

- كان شاياً رائعاً.. شكراً لك، من الأفضل أن أعود الآن.

وقف على قدميه برشاقة رجولية، وأجاب: «سأوصلك إلى سيارتك».

ردت آلياً: «أستطيع أن أسير».

ودون أن يبعد عينيه عن وجهها سألها: «وتؤلمين ساقك أكثر؟».

أجفلت.. وأحست بساقها تصرخ ألماً، فقالت على مضض: «حسناً جداً.. وشكراً جزيلاً لك».

ـ هذا تعويض صغير جداً عن خشونة مارك.

تقدم منها وأمسكها من مرفقها مرة أخرى.. أحست وكأن أصابعه تحرق بشرتها وهو يساعدها لتقف، وإن كانت تدرك أنّ ذلك مستحيل...

قالت بحدة: «مارك مسؤول عن هذا».

وزمت شفتيها لتواجه الإحساس الغريب الذي سرى في جسمها.

أجابها: «إنه موظف عندي.. لهذا فأنا المسؤول».

خطت لانث بضع خطوات متصلبة، وعرجها يزداد وضوحاً مع ارتفاع حدة الألم في ساقها.

تمتم بكلام غير مفهوم... وبحركة بطيئة، رفعها بين ذراعيه.

صاحت بذهول: «هاي!».

ولم تستطع أن تزيد مع تصاعد اضطراب سريّ محموم في داخلها.

شدّها إلى صدره القوي العضلات بحركة عفوية، وهو يسير بخفة مدهشة نحو الردهة العريضة التي تؤدي إلى الباب الأمامي، وهو يقول: «ربما تفضلين أن يحملك مارك».

لم تكن دلائل القوة الرجولية فيه وهماً.. أما القدرة على السيطرة على نفسه التي كانت تضفي سلطة على مظهره الرائع الشامخ، فكانت بارزة في طاقة وتصميم مميّز.

مزيج مخيف من اللهيب والثلج، سرى في كيان لانث.. فقالت وهي تحاول أن تبدو عادية: «لست بحاجة لأن يحملني أحد».

ـ أنت شاحبة كورقة بيضاء.. والعرق يتصبب من جبينك.. أرجوك لا تجعليني أشعر بالسوء أكثر مما أنا عليه الآن.

ولأنها تكره الشفقة، ردّت ببرودة:

ـ لست كذلك.. صحيح أن ساقي تؤلمني.. لكنني أستطيع أن أصل إلى سيارتي.

فقال باستنكار ساخر: «حتى ولو اضطررت إلى الزحف.. قد تقطعين أنفك نكاية بوجهك..».

اسكتتها كلماته هذه.. فمن الواضح أنه يشعر بالمسؤولية عن تصرف حارسه، لكن معاملة مارك الخشنة لها لم تعد تهمها.

اختلج قلبها وهي تسترق نظرة إلى جانب وجهه الرائع، الذي أحاطت به فجأة هالة ذهبية غير متوقعة وهما يخطوان إلى الخارج تحت أشعة الشمس.. قالت لنفسها بازدراء متبجح: إنها مجرد جاذبية.. مجرد جاذبية.. إنه شعور عادي بين ذكر وأنثى، ولا يعني شيئاً.

كافحت ذلك الإحساس، وأجبرت نفسها على الاهتمام بما يحيط بها، وعلى صرف انتباهها عنه.

إن مصمم هذا المنزل، كائناً من كان، يفهم طقس «نورثلاند» جيداً. كان هناك مدخل مسقوف يمتد من الباب على طول الطريق الداخلية المرصوفة بالحصى، مما يوفر الملاذ من حرارة الصيف، ويحمي من المطر الذي يغزو شبه الجزيرة في كل المواسم. ورأت هناك سيارة «رانج روفر» ضخمة فخمة ومغبرة.

قال مضيفها: «أنا مضطر لإنزالك».

وأنزلها بعناية رقيقة.

تمسكت بمقبض باب السيارة، فاشتدت ذراعاه حولها مجدداً للحظة.. أحست بحرارة في عظامها، ثم باسترخاء مثير، وذابت في دفء أحضانه، وفي رائحة عطره الخفيف الرجولي لكنها تجنّبت أن تعترف بذلك.. وانتظر حتى تركت مقبض الباب واستقامت، ثم تراجع.

سألها وهو يفتح الباب: «هل بإمكانك تدبّر أمرك؟».

ـ نعم.

رفضت الاعتراف بالألم في ساقها، وصعدت إلى السيارة، ثم انحنت لتشد حزام الأمان. ولم تلتفت إلى الرجل الذي استدار وصعد قربها.

قال وهو يدير المحرك: «أفترض أنك تركت سيارتك عند البوابة».

ـ أجل، عند آخر الطريق.

قاد السيارة الكبيرة بمهارة في الطريق الضيقة، وجلست لانث صامتة إلى أن رأت سيارتها المتوقفة قرب أشجار الصنوبر، وقد حمتها من الطريق المغبرة أوراق شجيرات صغيرة.

قالت: «هناك».

ـ رأيتها.

ركن سيارته خلف سيارتها. وكتمت لانث ابتسامة ساخرة، وهي تنزل بسرعة، وتعرج نحو سيارتها العتيقة، اليابانية الصنع.

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء، فتخطّت ظل الأشجار وجعلت داخل السيارة ساخناً. أنزلت زجاج النافذة وتركت الباب مفتوحاً وهي تفكر بحنق في تصرف مارك وترجو أن يصعد مضيفها القسري إلى سيارته ويتركها وشأنها.. أحست وكأنها تقف على نصل سكين.. ماضيها مخبأ في الظل، ومستقبلها يكاد يردد صدى الفراغ.

قالت بابتسامة مشرقة: «شكراً لك».

لمع المرح في عينيه لوهلة وقال:

ـ يجب أن أشكرك لأنك لن تقاضيني. والتعويض الوحيد الذي أقدر عليه، هو أن أعرض الشاطىء عليك في أي وقت ترغبين فيه بالسباحة.

ـ هذا لطف كبير منك، شكراً لك.

جاءت كلماتها خرقاء ولم تستطع إخفاء الدهشة من صوتها.. ثم حيّته بإحناءة من رأسها وتراجعت إلى سيارتها وهي تفكر: هذا مستحيل.

الشفقة وحدها سبب العرض، وهي تكره الشفقة. منذ الحادثة، تحملت منها ما يكفيها. ودافعت عن نفسها بالكبرياء العنيدة.

وبحركة حادة، أدارت المحرك، وغضبت حين تأوه، ثم توقف صامتاً.. وحاولت مجدداً بشفتين مشدودتين.. هذه المرة انتعش المحرك ودار، فابتسمت بأدب ولوّحت له بيدها.

وقبل أن تنزل الكابح اليدوي، مال إلى الأمام، قائلاً: «سألحق بك إلى

منزلك.. لأتأكد أنك على ما يرام».

ـ لا داعي لهذا.

لكنه كان قد تراجع عائداً إلى سيارته.

تسلل القلق إلى قلبها وكأنه مخالب قطة. وللحظة فكرت في أن تذهب إلى «باتش» آخر، لكن العقل والمنطق أعلماها بأن بضعة أسئلة ستوصله حتماً إلى حيث تسكن.

لم تكن خائفة.. فلا سبب يدعوها للخوف منه.

وهكذا قادت سيارتها بهدوء إلى أن وصلت إلى «الباتش» الثالث قرب البحيرة الثانية، واستدارت لتتوجه تحت ظلال أشجار السرو الضخمة الى الباحة المعشوشبة الأمامية، ومن ثم إلى المرآب. وتوقف الرانج روفر على الطريق في الخارج، ومحركه لا زال يهدر بينما خرجت هي من سيارتها، وأقفلتها، ثم تقدمت نحو باب منزلها. وبتوتر، فتحته ودخلت.

انتظر إلى أن فتحت الباب، ثم استدار بعد أن أطلق الزمور مرة واحدة.

آخر ما رأته منه، كان جانب وجهه المتعجرف البارز في دوامة غبار بيضاء على الطريق، وتلويح يد طويلة بإهمال، فتنفست الصعداء. وقفت للحظة، تنظر إلى دهان الباب الباهت، ثم فتحته بحدة ودخلت.

صدمتها الحرارة وكأنها تلقت صفعة.. ففتحت النوافذ على مصراعيها، وفكرت بالواجهة الزجاجية المطلة على البحيرة وبالهواء العليل، ثم هزت كتفيها.

من هو؟ ولِمَ هو بحاجة إلى شخص مثل مارك في مكان مثل نيوزيلندا؟ وفكرت وهي تزمّ شفتيها، ربما غروره القاتل يتطلب طمأنة حارس شخصي.

لا يبدو هذا محتملاً.. لكن، ماذا تعرف عن الأثرياء؟ أو الرجال الوسيمين؟ فلو أن آلة التصوير أعجبت بوجهه كما أعجبت به عيناها، لكان نجماً سينمائياً. لقد بدا لها وجهه مألوفاً، كصورة تتذكرها جزئياً من مجلد صور لشخص غريب.

من الآن وصاعداً، يجب أن تلتزم بشاطىء هذه البحيرة.. مما يعني

نظرات فضولية، وتعليقات حول ساقها.. ونظرات إلى أثر الجرح.. أحمر قرمزي، مجعّد، غير سويّ.. يمتد الجرح على طول فخذها ليصل إلى كاحلها.. لقد كادت تموت من الصدمة، وأحياناً تتمنى لو أنها ماتت.

كانت قدرتها على الإشفاق على نفسها تسقمها، وهذا أمر جديد بالنسبة لها.. هذا الإفراط في اليأس الضائع سدى، والذي لطالما انتظرها وكأنه رمال متحركة.

وبصوت أرادته مرحاً، صاحت عالياً في الهواء الخانق:

ـ حسناً جداً يا لانث براون. لقد مررت بتجربة، وكائناً من كان، فهو ليس سائحاً عادياً من طرازك.

ثم رفعت موجات شعرها الكث، عن بشرتها الحارة، واتجهت إلى الحمام.

***

قال الرجل من خلف المكتب منادياً: «أدخل».

ودخل مارك، ليقول متصلباً: «قبل أن تقول لي كم أنا غبي، أنا آسف».

اختفى العبوس الذي كان في عيني أليكس.. ثم ابتسم ساخراً:

ـ لا تدع حماستك تتغلب على تعقلك مرة أخرى.

ـ لن يحصل هذا.

واتسعت ابتسامته، وهو يقول: «إذا رأيت شيئاً مريباً، أبلغني به. أعتقد أن أمي اتصلت بك».

ضحك مارك واسترخى: «مرات عدة، قالت إنك في خطر وأصرت على ضرورة توخّي الحذر».

تساءل أليكس بجفاء: «لماذا إذن جئت بالفتاة المتسللة إلى المنزل؟».

أمه مقنعة جداً.. ومارك وكيلها هي وليس حارسه الشخصي.

ـ لقد أمضت حياتها قلقة علي. أنا لست في خطر، وبخاصة، ليس من شابة لا تبلغ الخامسة والعشرين، وعرجاء. لا تهتم لأقوال أمي.

لم يستطع أن يقنعها أنه غير معرض للخطر في نيوزيلندا، بالرغم من أن هناك أشخاص كثر سيفرحون لخبر موته.

نظر إلى كومة الرسائل على مكتبه، وسأل: «من هي هذه المتسللة؟».

نظر مارك إليه مجفلاً: «وما أدراك أنني عرفتها؟».

ـ لو كانت سائحة عادية لرافقتها إلى البوابة وأعدتها من حيث أتت.

ـ أجل.. حسناً جداً.. أدركت أنني رأيتها في مكان ما.. وعرفت أنني رأيتها على التلفزيون، لهذا ظننتها صحافية. وقد جئت بها إلى هنا، إذ اعتقدت أنك سترغب في استجوابها.

هز أليكس كونسيدن رأسه، وسأله: «ولكن؟».

ـ حين دخلت حاملاً صينية الشاي تذكرت من هي. لقد قدمت سلسلة من البرامج الوثائقية عن الحياة البرية، إلى أن نهشها «قرش» في مكان ما من المحيط الهادىء، منذ سنة.

إذن هذا ما تسبب لها بالعرج، وبتلك الندبة البشعة؟.. وارتعد أليكس.

ـ ما اسمها؟

ـ لانث براون.. لقد احتلت لفترة غلافات المجلات النسائية كلها.. لكنها خسرت عملها بعد الحادثة بالطبع.

هز كتفيه وتابع: «بدت الفتاة التي حلّت مكانها، جيدة مثلها في البيكيني.. لكنها لا تجيد عملها..».

هز أليكس رأسه، وأكمل مارك:

ـ على فكرة.. أنا لم أقصد أن أؤذي معصمها. كادت تقع في الماء، لكنها نجت بأعجوبة.. وبدأت ترتجف وقد أصبحت شاحبة كورقة بيضاء.. مما أخافني كثيراً، فشددتها بشيء من الخشونة.. لكنني لم أقصد أذيتها.

قال أليكس: «لا بد أنها تتوتر من الماء.. وهذه ردة فعل طبيعية لأيّ انسان بعد أن يتعرض لهجوم كلاب البحر».

- أجل.. هذا ممكن.. وإن لم يكن هناك سمك قرش في البحيرات.

ضحك أليكس، وأجاب: «ليس الأمر بهذه السهولة.. حسن جداً، اذهب إلى عملك».

- متى تريد العشاء؟

- في الثامنة.

راح ينظر إلى الأوراق أمامه، وبالكاد سمع الباب يقفل وراء الرجل.

وبعد ساعة، رفع رأسه ووقف، ثم خرج إلى الشرفة. تراقصت البحيرة أمامه، زرقاء لامعة.. واستعاد صورة وجه المرأة... إنه أمر مثير للاهتمام.

لقد عرف نساء أكثر فتنة. كان الوعد المغوي يتدفق منهن مع كل ابتسامة، مع كل حركة من أجسادهن.. لكن هذه المرأة مختلفة.. أوه، شكلها حسن وبشرتها رائعة.. وعيناها الذهبيتان فريدتان.. لكنها تعرج.

قطب جبينه.. في البداية لمعت تلك العينان الكهرمانيتان غضباً، وبالكاد أخفت الرموش السوداء الطويلة قلقها.. وذلك الشعر! شعر يلتف على قلب الرجل.. لكنه أدرك ساخراً أن قلبه آمن.. وأنها مجرد ردة فعل بدائية. لقد أراد أن يرى شعرها منثوراً فوق وسادته.. وهاتين العينين مثقلتين بحرارة الشوق.

حين التقت عيونهما، تقلصت معدته وكأنه تلقى للتو ضربة عليها.. واخترق شوق جامح دفاعاته التي عززها منذ سن المراهقة.

وتذكر وجهها، معتمداً على عقله البارد المحلل الذي لم يخذله يوماً. واسترجع صورة وقفتها المتحدية، وملامحها الأنثوية الرقيقة.. ولاحظ أن يديه تشتدان في قبضتين، بعد أن استجاب لتخيلاته دون إرادة منه.

ما الذي يجذبه إليها على هذا النحو؟ لم يكن فيها أي خداع أو تصنّع، ولم يحمل الفم الناعم أيّ أثر لأحمر الشفاه، وتلك العينان اللامعتان لم يعلوهما أي كحل أو ظلال.. ومع ذلك، وتحت جمالها الكلاسيكي، الرقيق، أحس بقوة جارفة، قوة بدائية دنيوية، وكأنها تهدد وهي تغوي.

ماذا رأت عيناها المذهلتان حين نظرت إليه للمرة الاولى؟

كشر، وأجبر يديه على الاسترخاء.. لقد رأت ما يراه هو كل صباح في المرآة.. الوجه الذي يدل على حسبه ونسبه، ويعلن عن إرثه.. قسمات متوارثة منذ ألف سنة.

لم تنظر تلك العينان الكبيرتان إليه سوى بارتياب.. وحاول أن يجد شيئاً مسلياً في ذلك، خيط ساخر يخمد الحمى التي تلفه.

لقد تحدّت رباطة جأشها الباردة الرجل البدائي فيه.. تماماً مثلما فعل شعرها الرائع وبشرتها الناعمة وعيناها الذهبيتان..

وفكر ساخراً: «وقامتها تحت تلك الثياب البشعة.. أوه.. أجل».

لقد سحرته ساقاها النحيلتان، ومفاتنها الناعمة القاتلة.. وعنقها الطويل، ومعصماها الرقيقان وكاحلاها.

جاءت ردة فعله على ذلك الجرح البغيض قوية ومختلفة.. وأزعجه الألم الذي ارتسم في عينيها، وشحوب وجهها حين آلمتها ساقها.. كما صدمته حاجته اللاإرادية لحمايتها.

إنه رجل ذو مشاعر قوية وإرادة أقوى. والعزوبية خياره.. كما يعترف بأنه يهوى النساء.. لكنه يسأم من الجمال الشائع.

ومع ذلك، وحين فتح الباب ورآها تنظر من النافذة، أحس في أعماقه بتجاوب غريب.

اللعنة على كل ما يعتبر غير مناسب.. وسار عائداً إلى مكتبه ليسوي أوراقه ويضعها قرب الكومبيوتر. قد يحتاج إلى شيء من التنفيس.. لكنه، الآن، ومن بين كل الأوقات يحتاج إلى الاحتفاظ بصفاء ذهنه. لديه أشياء أكثر أهمية يفكر فيها، ولهذا قصد نيوزيلندا.. للتفكير. فالقرار الذي سيتخذه لن يؤثر على حياته فحسب، بل على حياة الملايين.

وللمرة الاولى في حياته، لم يستطع دراسة الوقائع بموضوعية أو تقدير نتائج أي قرار.. تفكيره المستقل، الحاد كنصل السيف، البارد، الذي لطالما أعمله بحكمة لحل شؤونه، رفض مواجهة الامور.

واندمجت قسمات وجه لانث براون مع أفكاره العملية.. وأثار اهتمامه

التناقض بين اسمها، وشهرتها. فكلمة «لانث» تعني زهرة البنفسج..

كل هذا غريب! فتلك القسمات المحفورة بدقة، هي من النوع الذي تعشقه آلة التصوير.. وراح يفكّر في ما إذا كان بإمكان الكاميرا أن تكشف أيضاً ذلك الجمال المتوحش الكامن فيها..

نظر من النافذة مقطباً، وحدق في مياه البحيرة الزرقاء... وبما أن مارك اكتشف هويتها، أصبح من السهل معرفة المزيد عنها.. وقد عمل التحري في أوكلاند، بنشاط وسرعة، فوصلته النتيجة عبر الفاكس منذ بضع دقائق.

لكن، لا شيء عن حياتها الخاصة.. فخلال مقابلاتها مع المجلات النسائية، لم تتحدث سوى عن عملها، وهو السباحة الاستعراضية مع الحيتان والدلافين.

وكلاب البحر!.. لا شك أن تلك الخطوط الكثيبة المرسومة حول فمها المفعم بالحيوية، ذاك الحزن في عينيها، هما نتيجة أخرى لذلك الهجوم الذي تعرضت له.

وتملكته مجدداً رغبة قوية في حمايتها، فضغط على زر إلى جانب المكتب، بعد أن وضع الأوراق التي أرسلها التحري في الدرج.

حين ظهر مارك، قال له:

ـ سنذهب غداً إلى «دراغاڤيل».. أليس كذلك؟ اذهب إذن إلى محل بيع أشرطة الڤيديو واشترِ لي أي شريط تظهر فيه لانث براون.

ولما أصبح وحيداً، التقط الأوراق من على مكتبه، وشرع يقرأ، ليتمكن من نسيان ذكرى الفم الجميل، والشعر المتماوج بين الذهبي والنحاسي اللماع، والبشرة الرقيقة كالحرير، وعينان ذهبيتان كبيرتان، تعكسان ألوان النار، وتلمحان إلى شغف لم يوقظه أحد بعد.

***

٢ ـ عينان من نار

بعد ليلة قلقة، قضت مضجعها فيها الأحلام المزعجة، شربت لانث فنجانين من الشاي، وأجبرت نفسها على أكل قطعة توست قبل أن تتوجه سيارتها إلى أقرب بلدة.. إلى دراغاڤيل الميناء الصغير على نهر وايروا.

وبعد أن اشترت مؤونتها مما لا تجده في المحل الصغير في المخيم، اختارت مجلتين وجاهدت لتقاوم اغراء كتب جديدة عدة.. لكنها عادت واشترت أربعة كتب أخرى من رف الكتب القديمة في المكتبة.

عند منتصف الطريق المؤدي إلى منزلها، رأت سيارة رانج روڤر مائلة الى جانب الطريق وقد وقعت في خندق.. ووقف إلى جانبها شخص مألوف، يتفحص الأضرار.

كادت أن تزيد من سرعة سيارتها لتتجاوز مارك، الحارس، لكن رباطاً غريباً جمع بينهما بعد تصرفه ذاك اليوم، لهذا ركنت سيارتها خلفه ونزلت منها، لتقول بهدوء: «مرحباً.. هل أنت بخير؟».

فأجاب مارك دون أن يبتسم: «أنا بخير».

وتساءلت لانث لم أزعجت نفسها، لكنها تابعت تقول:

ـ هل تريدني أن أستدعي لك كاراج «كايهو»؟

قال: «لقد توليت الامر، لكن بإمكانك إسداء خدمة لي.. أحمل أطعمة مجلدة، ولن تحتمل الحرارة طويلاً، هل يمكنك أن توصليها إلى المنزل؟».

قاومت لانث إحساساً بحتمية القدر، وقالت: «أجل.. سأفعل

هذا . . هل تحتاج لأن أوصلك بعد أن يسحب الروقر إلى المرآب؟».

ـ لا.

قالت، وقد تملكها إحساس بأنها ستعجز عن التراجع: «حسن جداً. أعطني الأطعمة المجلدة لأوصلها».

وبعد دقائق، أكملت طريقها مع كيس بلاستيكي كبير في صندوق سيارتها، وتقطيبة تجعّد جبينها . . لو فكرت بشكل سليم ومنطقي لمرت به وتجاوزته . . لكن حب أهل نيوزيلندا للمساعدة، تغلبّ فيها على أيّ غريزة أخرى

سوف تتحدى الآن الأسد في عرينه . . لا، بل الصقر في عشه.

ولعل للصقور أوكار مثل النسور . . وابتسمت لهذه الفكرة ثم وضعت نظارتيها لتقي عينيها من لمعان الشمس على الإسفلت أمامها كالسراب. إنه فعلاً كالصقر في سماء صيفية، متكبر، شرس، وقاتل . .

توقفت تحت تلك الخيمة الرائعة وكل خلية في جسمها تنبض فتبث الدفء في بشرتها وتشحذ أحاسيسها.

خرجت من السيارة وقرعت جرس الباب. وترافق ذلك مع هديل حمام زاجل أسود، تصاعد من بين أوراق شجر «الأوريليا» . .

إن الطيور، وألوانها الداكنة، ما كانت لتثير خوف لانث أو خشيتها . . مع أنها كانت تعرف أن الطير الأسود يعتبر نذيراً للموت في «نيوزيلندا» . . لكنها عالمة طبيعيات بحق السماء!

ومع ذلك، وهي تقف أمام الباب الخشبي الضخم، بدت الحمامة الزاجلة كرسول سحري . . مبعوث من عالم آخر يستدعي البطل المنشود.

هزت كتفيها ساخرة، واستدارت لتدق الجرس مجدداً. لكن الباب انفتح بصمت قبل أن يلمس إصبعها الجرس ونظر إليها ذلك الرجل الذي راود أحلامها وحرمها النوم.

شرارة غريبة ظهرت في العينين اللامعتين . . ردة فعل لم تستطع فهمها، إذ اختفت على الفور ليحل محلها موقف متحفظ.

استجمعت قواها وابتسمت ابتسامة مصطنعة وقالت: «معي بعض الأطعمة المجلّدة، طلب مني . . سائقك . . أن أوصلها».

حافظ على عبوسه . . ولم تظهر عيناه سوى بُعد فضي لامع، بارد شفاف، وهو يقول: «شكراً لك».

سار إلى جانبها نحو السيارة، وسألها: «أيّ منها الأطعمة المجلدة؟ سآخذها».

ثم استقام وفي يده الكيس البلاستيكي، وأكمل كلامه:

ـ لقد دفعت شاحنة مسرعة سيارة مارك إلى القناة. شكراً لك على أخلاقك الطيبة.

إذن، تنبه الى أنها ستنصرف . . وقالت:

ـ يجب أن أذهب الآن، أرجو أن تسير الامور على ما يرام بالنسبة للسيارة.

لم تستطع أن تتبين أي إحساس في تعابيره . . وطال الصمت بينهما.

وأخيراً، قال بذهن مشتت: «أدخلي لتشربي شيئاً ما، تبدين متعبة وعطشى».

لفتت نظر لانث حركة صغيرة من طير الحمام الزاجل، كان يقف على أعلى غصن في الشجرة، وقد فتح ريش ذنبه، ريش أسود يتناقض مع الأوراق الخضراء الذهبية . . بدا أن عينيه المستديرتين البراقتين مثبتتان على لانث، بإصرار آمر.

من الغباء أن تهتم لهذا المخلوق الصغير، الشائع في نيوزيلند . . والغباء الاكبر هو قبول الدعوة.

لكنها بدّلت رأيها بتهور، وقالت ببطء:

ـ يبدو هذا رائعاً . . أنا فعلاً أشعر بالحرارة والعطش.

ابتسم وتراقص قلبها بين ضلوعها . . ثم علّق قائلاً: «لكن، ربما يجب أن نتعارف أولاً».

ومد لها يده مصافحاً، وهو يقول: «أنا أليكس كونسيدين».

إنها تعرف هذا الاسم! لكنها لم تتذكره، فأخذت نفساً عميقاً وقالت: «أنا لانث براون».

وبنوع من الاستسلام وضعت يدها في يده، وأطبقت يده على يدها. للحظة، اشتعلت في احشائها نار مجنونة، قضت على التعقل والحذر.. وظنت أن المصافحة إشارة رمزية، تطالب بحق التملك.

ذعرت.. هذه سخافة.. سخافة مطلقة!

سحبت يدها من يده، فتركها، وكأنما ارتجاف النساء حين يلمسهن أمر عادي في حياته.

وقالت بصوت أجش: «كيف حالك؟».

قال، وقد بدا صوته عميقاً مرحاً:

ـ كيف حالك يا آنسة براون؟ تفضلي بالدخول. هل هناك شيء ترغبين في إدخاله معك؟ ربما بعض الطعام المجلد، لأضعه مع طعامي في الثلاجة؟

اللعنة! كان عليها أن توصل اللحم الذي اشترته الى منزلها قبل مجيئها إلى هنا.. لكن لا.. لقد أثارت أعصابها فكرة رؤيته مجدداً بحيث قادت سيارتها دون تفكير، وتجاوزت منعطف منزلها.

قالت تعترف: «في الواقع.. أجل. هناك شيء ما».

فرحت إذ تمكنت من الانحناء ورفع الكيس الصغير من السيارة.

حمله مع كيسه، وأشار لها بأن تتقدمه، فأطاعته بكبرياء، وهي تقول بابتسامة عفوية:

ـ اسم «الآنسة براون» يبدو لي رسمياً جداً.. وأنا أفضل اسم لانث.

أسدل رموشه لهنيهة، وقال: «إذن يجب أن تناديني أليكس».

رافقها إلى غرفة الجلوس بمنظرها الرائع، ثم أضاف:

ـ أستأذنك.. سأضع هذه في الثلاجة.

اجتازت لانث الباب المفتوح وأغمضت عينيها في وجه التناقض الحاد بين الرمل الأبيض وزرقة المياه الصافية.. وفكرت في أنه رجل لا يمكن للمرء أن يتحمل مساعدته.

وفي محاولة منها للتركيز، أخذت نفساً عميقاً، واستدارت استدارة خرقاء، فرأت أليكس يخرج من الباب وهو يحمل صينية عليها زجاجات من العصير.

قال حين نظرت إلى الصينية: «أستطيع أن أحضّر الشاي أو القهوة إذا كنت تفضلين ذلك».

هزت لانث رأسها وقالت بامتنان: «لا.. الشراب البارد سيكون رائعاً».

ـ تعالي إلى الخارج.. فالجو أكثر برودة.

تمتد الشرفة على طول واجهة المنزل الأمامية. وهناك فسحة مسقوفة مخصصة للجلوس فرشت بمقاعد خشبية طويلة تعلوها وسائد بيضاء. وتتدلى عريشة مليئة بالعنب من الأعلى، تحجب حدة الشمس اللاذعة.. بدا المكان كله مميزاً جداً. وفكرت لانث بحسد، أن المرء يمكن أن يستلقي على هذه الأرائك، ويترك الشمس تلوّن بشرته.

لكن ولسوء الحظ، لا يمكنها أن تخاطر مع بشرة بيضاء شاحبة مثل بشرتها.. ولا ينطبق هذا الأمر على أليكس فبشرته سمراء وتزداد سمرة تحت مداعبات الشمس. على أي حال، إن طاقته المكبوتة تجعل من الصعب تخيّله مستلقياً بتكاسل برغم لونه الأسمر المميز.

أحست بمعدتها تنكمش للصور التي مرّت في ذهنها.. وسألته بسرعة:

ـ لماذا اخترت هذا المكان لقضاء عطلتك يا أليكس؟

فردّ بسرعة: «أردت مكاناً هادئاً لا ألتقي فيه بأحد أعرفه. ماذا تفضلين.. عصير الأناناس أم الليمونادة، أم شيء آخر؟».

نطق بالحقيقة، لكنها ليست الحقيقة الكاملة.

ـ ليمونادة.. شكراً لك.

قبلت الكأس الذي قدّمه لها، وقالت:

ـ أراهن أنك قبل أن تعود إلى ديارك، ستصادف شخصاً تعرفه.. ونيوزيلاندا شهيرة بصدفها.

أسدل رموشه السوداء الطويلة فغطت عينيه للحظة، وقال بلهجة محايدة:

- أرجو ألاّ يحصل هذا.. لكن إذا ما حدث، أتمنى أن أراه قبل أن يراني.. هل جئت إلى هنا طلباً للهدوء والعزلة كذلك؟

أدارت لانث رأسها لتنظر إلى البحيرة.. وأجابت ببساطة: «أجل».

ولسبب ما، لم تعد غير راغبة في الكلام، فتابعت تقول:

- لقد نهشني كلب بحر.. وبعد أن انتهى السيرك الإعلامي وخرجت من المستشفى للمرة الثالثة، أردت أن أرحل بعيداً لأشفي نفسي بنفسي.

لم يظهر أي أثر للشفقة، وإلا لوضعت الكأس من يدها واعتذرت قبل أن تغادر المكان. لكنه قال بلهجة جدية: «لا بد أن هذا أفظع ما يمكن أن يحصل لأي انسان».

- لكني ولسبب غريب، لا أعتقد هذا.. كنت على وشك الخروج من الماء حين حصل الحادث... ولا أستطيع أن أتذكر الكثير.. أدركت فقط أنني في منطقة صيد القرش... ولدهشتي لم أشعر بالألم حين أمسك بساقي، بل صدمت بما يكفي ورفسته على أنفه! كنت محظوظة، لأنه كان كبير الحجم. وبدا جلياً أنه لم يكن راضياً حين تلقّى ضربة مؤلمة على أكثر الأماكن الحساسة فيه.

- أي نوع من كلاب البحر؟

دهشت وضحكت، فهذا هو السؤال الذي طرحه البرفسور في الجامعة.. وقالت:

- القرش النمر.

- وهل اصطادوه؟

هزت رأسها.

- لا، لم يحاولوا اصطياده.. ولمَ يقتلون مخلوقاً يفعل ما وجد ليفعله؟ بالرغم من افلام هوليوود، لا يتحوّل سمك القرش إلى آكل للبشر، كما تفعل الفهود والأسود. إنه يأكل ما يصادفه وحسب، وفي ذلك اليوم،

صادفني أنا.

فقال بلهجة تخفي معانٍ أخرى:

- أنت متسامحة جداً.. أما أنا فأميل إلى قتل أي شيء يحاول أن يأكلني.

التفتت إليه بسرعة، ثم شغلت نفسها بالنماذج التي كانت ترسمها أوراق الشجر على الأرض..

قالت: «كلاب البحر مهددة بالانقراض، وكنت أنا في بيئتها.. وحين تسبح، تخاطر بأن تصطدم بحيوان ضخم مفترس أو آخر صغير سام».

- وأنت تستمتعين بالسباحة.

- لطالما استمتعت بالسباحة.

زادت حدة نظرته، لكنه عاد وهزّ رأسه، فاسترخت أعصاب لانث.

قال: «تكلمت عن «سيرك» إعلامي، فهل السبب أنك نجمة تلفزيونية مشهورة؟».

من المستبعد أن يكون ماكس قد شاهد السلسلة الوثائقية.. فعلى حدّ علمها لم تبع السلسلة سوى في انكلترا وأميركا.. وتمنت لو أن مارك أبقى فمه مطبقاً.. قالت بخفة:

- هجمات سمك القرش تستحق دائماً أن تكون من الأخبار البارزة.. أما دوري فكان ثانوياً.

وآلمها الجرح في ساقها، لكنها تجاهلته، وتمنت لو تستطيع مواجهة نظرات أليكس المقيِّمة.

سأل: «وكيف وصلت إلى هذا النوع من العمل؟».

لم يبدُ متحمساً، إنما مهتماً فقط، فردّت، وقد سرّها كبحه لمشاعره:

- أنا عالمة أحياء بحرية.. كنت أعمل مع الدلافين في خليج الجزر حين فكر فريق سينمائي أنني مناسبة لإعلان يصورونه لشركة طيران نيوزيلندية.. وبعد ستة أشهر من هذا، اتصل بي أحدهم وسألني ما إذا كنت على استعداد لتصوير سلسلة وثائقية عن الحياة البحرية في نيوزيلندا.

- وسلب هذا العرض المبهر عقلك، فوافقت.

وأدركت أنه يمازحها. فضحكت، وقالت:

ـ لو كان هذا السبب لأصبت بخيبة أمل! كنا نعيش في تقشّف فوق مركب بني أساساً للشحن، لا.. قررت أن أقوم بهذا العمل لأني لم أعد أتلقى أموالاً لأبحاثي، و قد عرضت عليّ شركة الأفلام مالاً وفيراً.. يكفي لإبعادي عن التذلل لأي ممول، إذا ما عشت مقتصدة.

ـ وهل ستعودين إلى الدلافين؟

ـ حالما أستطيع.

أرادت ألاّ يفضح وجهها مشاعرها، وأن تبقى عيناها باردتين هادئتين.. أرادت ألاّ يلاحظ طبيعة ردها المتحفظ.. ولم تعرف ما إذا نجحت في ذلك.

لم يعكس وجه أليكس كونسيدين أيّ انفعال أو تعبير.. لكن في تلك اللحظة بدا مهتماً.

ـ وهل تمتعت بالعمل السينمائي؟

ـ أجل.. بعد مشاحنات في البداية.

حين رفع حاجبيه مستفهماً، شرحت له:

ـ لم أكن أعرف أن جلّ ما يريدونه هو شخص يبدو مقبولاً في ثوب سباحة فاضح، شخص يلهو ويمرح في الماء.. أرادوني أن أترك شعري منسدلاً أمام الكاميرا.. كما توقعوا مني أن أتودد إلى الكركند والأصداف والأسماك الجميلة.. وبعد أن تباحثنا في هذا كله توصلنا إلى حل.. وأعجبني العمل كثيراً.

فسأل بابتسامة عريضة: «وكيف توصلتم إلى حل؟».

قالت: «عارضت، وهددت بفسخ العقد.. إلى أن أدركوا أنني أعرف فعلاً ما أتكلم عنه، ولست مجرد حورية بحر خفيفة الوزن، وغريبة الأطوار تفضل الدلافين على الرجال».

تكلمت بحرارة جعلته ينظر إليها مجدداً نظرة ثاقبة أخرى. فسرت رعشة في جسمها، لكنها لم تطرف بل رفعت ناظريها إلى وجهه مباشرة.

سألها وابتسامته الكسولة تسلب السؤال وقاحته: «وهل تفضلين الدلافين على الرجال؟».

ضحكت لانث، وقالت: «يعرف المرء موقعه مع الدلافين.. لكن لا، أنا لا أفضلها على الرجال».

ـ وأين أنت مع الدلافين؟

ـ أنت في موطنها.. وأنت فضولي. أعتقد أنك أمضيت بعض الوقت في انكلترا.. عرفت هذا من لكنتك.

بدا وكأن الحديث يسلّيه، فأجاب:

ـ أمي هي السبب. لديها آراء متزمتة حول طريقة الكلام الصحيحة.

ـ قيل لي أن إقناع أطفالكم بألا يبدوا كالخارجين لتوهم من أفلام «الرسوم المتحركة» عمل شاق.

وابتسمت لانث وهي تفكر بالمعارك التي تخوضها صديقتها باتريسيا مع طفلها البالغ من العمر خمس سنوات.

قال بصوت ناعم: «ليس لدي أولاد.. لكن أصدقائي يؤكدون ذلك. أنا لست متزوجاً».

أيظنها تحاول الايقاع به.. قاومت سخطها، وحاولت تجاهل طرقات قلبها المتزايدة وارتعاشه.

سأل: «وهل ستعودين إلى العمل في التلفزيون؟».

ـ لن يرغبوا في بطلة لها ندبة في ساقها، لا يبدو المنظر جميلاً.. والعرج أمر غير لائق.

ولأن الأمر لم يعد يهمها، جاء صوتها عملياً ككلماتها.

لم تستطع سماع ما غمغمه لكن لا بد أن الجملة كانت فظة، نظراً للشرر المتطاير من عينيه. رفعت نظرها إلى وجهه القاسي، وإلى عينيه الساخرتين الذابلتين، فسألها: «وهل قالوا لك هذا؟».

ـ لا.. لكنها الحقيقة. فالمشاهد لا يحب إفساد برنامجه بما يذكره ببشاعة العالم الحقيقي.. ويتذمر الناس بمرارة إذا ما شاهدوا الحيوانات تأكل بعضها

على الشاشة! ولعل هذا يعود إلى أننا نعيش في المدن ونود أن نصدق أن الطبيعة ليست سوى جمال وتناغم.

تلاشت القسوة من على وجهه ومال إلى الوراء، وقال: «لكنك لا تصدقين هذا؟».

هزت كتفيها: «العالم جميل جداً، لكنه ليس عاطفياً.. فالحيوانات تقتل لتأكل وتعيش..».

- لكننا حيوانات أيضاً.

تململت من نظرته المركزة عليها، وقالت له:

- بالطبع نحن كذلك، لكننا نعرف ما نفعله.. في حين أن الحيوانات تعيش بالغريزة.

- إذن.. من الطبيعي أن تفترس الحيوانات فرداً مريضاً أو مجروحاً من القطيع.. لكن الإنسان يجب ألا يفعل هذا؟

للحظة، لم تفهم ما عناه.. وحين فهمت التفتت إليه مجفلة غاضبة، قالت:

- تُبعد الحيوانات مريضها وتهجره لأن وجوده يجذب الحيوانات المفترسة الاخرى.. وإذا كنت تستخدمني كمثال، فأنا لست مريضة.. لكن، كان يمكن لجرحي أن يضع حداً لسلسلة أحداث إذا ما توقف الناس عن النظر إليه.. كنت في المستشفى حين صوّروا الحلقة الاخيرة، لذا كان عليهم أن يأتوا بشخص آخر يحل مكاني، ولم أشعر بالضغينة.

فعلق بابتسامة قاسية لا مرح فيها:

- كما قلت من قبل، أنت متسامحة جداً.

أوه.. يمكنها أن تكون متسامحة إلى حد كبير.. وفقدانها عملها كان أقل مشاكلها.

وأكمل: «هل سيبقى هذا العرج دائماً؟».

وأدركت لانث للمرة الاولى أن من يرى ندبة جرحها يتصرف بإحدى الطريقتين.. إما أن ينظر اليها بذهول ويعلق عليها بفظاظة، وإما يبقي عينيه

مسمرتين على وجهها بتهذيب.. وكلا ردتي الفعل توتران أعصابها لأنهما تلمحان إلى أنها تشكو عيباً ما.. وليست كباقي البشر. لكن أليكس كان ينظر إلى ساقها دون اشمئزاز.

قالت بصوت حاد لا يعكس أيّ تأثر وخيبة: «دائماً».

- تواجهين الأمر ببرودة أعصاب.

وبالرغم من أن صراحتها أعطته الفرصة ليسأل، إلا أنها كشفت له ما يكفي عن نفسها، فأجابت:

- أحاول أن أقلق حول الاشياء التي أسيطر عليها.. وقد لا أنجح دائماً، لكن التفكير في الماضي مضيعة للوقت.

- إن التفكير بأي شيء هو مضيعة للوقت.

هزت رأسها.. وتركت الشمس تتغلغل في شعرها. تناهت الى مسامعها موسيقى زيزان الحصاد، كما سمعت أصواتاً أخرى.. صوت القصب يحفّ على بعضه البعض، وصيحات النورس الكسول التي وصلت إليهم من الشاطىء الذي يبعد أميالاً، وهدير مركب سريع في إحدى البحيرات، هدير قوي كتمته التلال ليصبح دندنة لطيفة.

وتقدمت حمامة زاجلة، سوداء وقحة، ربما هي نفسها.. لتلتقط طعامها من الحشرات تحت العريشة.

وقفت، وهي تقول: «يجب أن أذهب الآن. شكراً لك على الشراب، وأرجو أن تعود سيارتك إلى حالتها السابقة قريباً».

وقف أليكس ليهيمن عليها بطوله الفارع، وقال بهدوء:

- لا يهم.. لم يصب مارك أو غيره بأيّ أذى. هذا هو المهم.

حاولت لانث أن تقنع نفسها بأنها ممتنة له لأنه لم يحاول إقناعها بالبقاء.. فالحديث معه سهل جداً.. ولقد كشفت له عن نفسها أكثر مما كانت تنوي أن تفعل وأكثر مما قاله هو عن نفسه.

وخذلتها ساقها مجدداً، وهما يتجهان نحو الباب الأمامي، وكانت عثرة بسيطة.. لكن يد أليكس امتدت على الفور، وأطبقت بقوة على ذراعها

لشدها.. عرفت لانث في ما مضى لسعة قنديل البحر.. لكنها عادت وأحست بها من جديد.. شعرت بصدمة، ومن ثم بوخزة أشبه بطعنة رمح نصله مزيج من النار والثلج.

هل ساوره الإحساس نفسه؟ رفعت نظرها إليه، فرأت فمه الجميل ينكمش ويقسو.

سألها بعد أن استعادت توازنها: «هل أنت بخير؟».

تمكنت من الابتسام وهي ترد: «أجل.. شكراً لك».

ـ هل تحتاجين للراحة؟

ـ لا.

ثم أضافت بسرعة وثبات: «ولا أحتاج لأن تحملني أيضاً».

قطب جبينه وحدّق في ساقها، ثم قال: «هل ستخذلك دائماً؟».

ـ لا.. لقد قال الاطباء إنها سرعان ما ستتحسن مع ازدياد قوة العضلات.

وكان الجرّاح نصحها بالمشي كثيراً لتقوّي العضلات.. لكنها لم تفعل خوفاً من نظرات الناس المشفقة... لكنها هذا المساء بالذات، ستبدأ التمارين، وتتجاهل النظرات والتعليقات الهامسة.

أنعش القرار معنوياتها.. فاستقامت في وقفتها، وودّعته ثم قادت السيارة بحذر على الطريق الداخلية، وهي تحاول جاهدة التركيز لتوقف فيض الأسى الغريب الذي كان اجتاحها.

وفي المنزل، فتحت النوافذ كلها قبل ان تخرج إلى الشرفة المطلة على البحيرة، وتنهار على أحد المقاعد القديمة لتقرأ الصحيفة.

بعد ما يقارب العشر دقائق، رمت الصحيفة أرضاً، وقد تملكها شعور بأنها معزولة عن العالم..

ولكي تكسر السحر الكئيب الذي أحاط بها، سارت فوق العشب الكثيف على طرف الشاطىء المزدحم.. كان بعض الأولاد الصغار يمرحون، يصرخون ويضحكون.. فيما البعض الآخر يسبح في الماء

الأبيض الصافي الذي يغطي الأماكن الضحلة.

أغمضت لانث عينيها، لكنها عادت وفتحتهما على الفور. وتمتمت لنفسها: «لن أقف هنا عاجزة». ثم سارت فوق الرمال البيضاء المبهرة.

تملّكها الغثيان قبل أن تصل الى منتصف الطريق. وأخذت أنفاساً عدة متتالية، لتقاوم الذعر الذي جعل العرق يتصبب منها والرعشة تعتريها، وأجبرت نفسها على الوقوف هناك لدقائق طويلة باردة، قبل أن تستدير وتعود متعثرة من حيث أتت.

مر بها شابان، سمعت أحدهما يصيح: «هاي.. أيتها الشقراء.. هل تحتاجين إلى مساعدة؟».

مرت بهما لا تلوي على شيء سوى الوصول إلى مكان آمن. فقال رفيقه شيئاً أتبعه بمسك ذراعها.

عند ذاك، ارتفع صوت صارم عبر الشاطىء، قائلاً: «اتركها».

استدارا معاً، وجمدت لانث وقلبها يخفق بألم بين ضلوعها.

كان أليكس كونسيدين أطول قامة منهما. لكنهما كانا ممتلئي الجسم، مشدودي العضلات... ومشيتهما المتعجرفة تتناقض مع رشاقته الرياضية. مع ذلك، لعبت قوة شخصية أليكس دورها، فنظرة واحدة إلى الرجل الذي أمسك بذراع لانث، جعلته يتركها وكأن بشرتها أحرقت أصابعه.. وقال الآخر متوتراً: «إنها بخير يا رجل.. ظننا أنها ستقع».

ثم تراجع وأكمل سيره بسرعة.

لم ينظر أليكس إليهما وهما يبتعدان، بل سألها بعد أن اقترب منها خطوتين: «هل أنت بخير؟».

امتدت يداه نحوها، وأمسك بكتفيها. فوقفت للحظات كالمشلولة تحت نظراته الثاقبة.

عرفت لانث أن لونها شاحب وأن هالات سوداء داكنة تحيط بعينيها.. فابتلعت ريقها بصعوبة لتبلل فمها الجاف، ولم تستطع سوى أن تقول بصوت متكسر: «أجل».

ـ ماذا دهاك بحق السماء؟

وانكمشت معدتها، فأخذت نفساً عميقاً متقطعاً، وقالت بغباء: «أنا آسفة».

حاولت التغلب على الغثيان الذي اعتراها من جراء الخوف. فما كان منه إلا أن ساندها بذراعه الفولاذية لتصعد السلم المنخفض، وقال:

ـ تعالي.. سندخل إلى المنزل.

أطاعته وهي مخدرة الأحاسيس، وقطعت الشرفة الخلفية العريضة، والتقط كيساً بلاستيكياً، فيما كانا يمران بالطاولة الصغيرة.

سألته لانث بعد أن دفع الباب وتركها تدخل: «ماذا تفعل هنا؟».

ـ لقد نسيت طعامك المجلد.

ودون انتظار إذنها، وضع الكيس في الثلاجة.

ـ أنت بحاجة إلى منشط.. سأحضر القهوة.

شدّت على فكها كي لا تصطك أسنانها، وقالت: «لا أريد شيئاً.. أنا بخير الآن.. شكراً لك».

تجاهلها وفتح باب البراد ليخرج إبريق عصير برتقال، قائلاً: «هذا يكفي».

صب لها كأساً، وأتى به إليها.. ثم قال آمراً: «اجلسي».

أحست أن الاحتجاج سيسبب لها المتاعب، فانهارت على المقعد. وانتظر حتى أزاحت شعرها الكثيف عن وجهها، ثم قدم لها الكأس. قبلته، وأخذت تراقبه وهو يرتجف في يدها، وقد تملكها الغضب.

قال: «سأساعدك».

استعاد الكأس من يدها، ووضعه على فمها لتتمكن من ارتشاف العصير الحلو المذاق.

وسرعان ما أحست بما يكفي من الارتياح لتأخذ منه الكأس وتبتلع المزيد.

انتظر إلى أن كادت تنهي شرابها، وسألها: «ماذا حدث؟ ماذا قالا

لك؟».

ـ لم يكونا السبب.

ـ ماذا إذن؟

لم يخدعها صوته الهادىء.. و أدركت أنها لن تتمكن من صرف النظر عن الموضوع، فأحنت رأسها.. وساد الصمت، فملأ رأسها وقلبها الارتباك.

وأخيراً قالت: «لقد أصبت بدوار وأحسست بغثيان».

وبالرغم من أنه لم يقل شيئاً، إلا أنه بدا جلياً أنّه لم يصدّقها. وأنهت العصير ببطء، ثم قالت بصوت عميق: «شكراً لك».

قال آمراً: «أنظري إليّ».

اخطأت حين رفعت رأسها... ونظرت إلى عينيه مباشرة، تتحداه أن يمضي في الموضوع قدماً، وعندها بدت غلطتها أكبر.. فقد خرقت نظرته الثاقبة دفاعاتها كلها.

سأل: «هل أصبت بضربة شمس؟».

كان الرد سهلاً، لكنها هزت رأسها نافية، إذ لم تعتد الكذب.

ـ لا.. بل شعرت بقليل.. من الإرباك.

وعجزت عن التنفس في تلك الغرفة الحارة. أحسّت ببشرتها مشدودة، فحاولت أن تجعل نبرة صوتها طبيعية، وهي تقول:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أخرج من الغرفة.. فالهواء أكثر برودة على الشرفة.

ـ حسن جداً.. هل تحتاجين إلى مساعدة؟

حاولت التخفيف من حدة الرد: «لا! أشعر أنني أفضل حالاً الآن».

لكن ما أن أصبحت في الخارج، حتى أدركت أنها بحاجة إلى الحركة لتحرق الطاقة التي لا زالت تتدفق في جسدها.. فسألت بعدوانية:

ـ هل ترغب في المشي لترى كيف يقضي الآخرون عطلاتهم؟

فرد بنظرة متحمسة: «ولمَ لا؟».

أشاحت لانث بعينيها، وركزت بقوة على خطواتها بين المتنزهين كي لا تكشف مدى تأثرها برفقة الرجل الذي يسير إلى جانبها، والرمال تنسحق تحت أقدامهما.. نظر أليكس حوله، وقد برزت التجاعيد الخفيفة عند زاويتي عينيه، كم عمره؟ ثلاثة وثلاثين عاماً أم أربعة وثلاثين؟

قال: «يذكرني هذا المكان هنا بالقرية التي عشت فيها إلى أن بلغت العاشرة من عمري».

أثار اهتمام لانث.. لكنها امتنعت عن طرح الأسئلة بسبب لهجته المتحفظة، وتقاسيم وجهه الأرستقراطية.

تجاوزا بعض العائلات، ومرا بمجموعات من المراهقين المسترسلين في طقوسهم الصاخبة، وأحست لانث بالعيون ترقبهما، بعضها مسلط عليها، والبعض الآخر على أليكس. كانت قد اعتادت نظرات الناس، لكن كيفية تعامل أليكس مع مسترقي النظر أثارت اهتمامها. كان يسير بثبات دون أن يلتفت إلى أحد.. ليس بسرعة ولا ببطء.

من هو؟ إنها تعرف اسمه.. إذن لعلها رأته صدفة. على أي حال، ذاكرتها قوية، ولو أنها رأت صورته، لتذكرت جمال طلعته البهية، وعينيه الشاحبتين، بدلاً من هذه الألفة الغامضة.

لكن، هل يمكن لأيّ صورة أن تلتقط جاذبية شخصيته، أو هالة السلطة التي تحيط به؟

على الأرجح لا.. ولن تفكر بهذا أكثر، فالخطر يكمن في نهاية هذا الطريق.

وبالرغم من أنها اعتمرت قبعة قش وهما يغادران «الباتش» إلا أن حرارة الشمس كانت تلسع كتفيها، وتعكس لمعاناً أزرق نادراً على رأس أليكس المكشوف.. كان يجب أن تنبهه الى ضرورة حماية رأسه.. لكن بدا لها أن هذا الأمر شخصي حميم فتجنبت التحدث عنه.

قال أليكس معلقاً: «من الواضح أنك تعرفين هذا المكان جيداً».

هزت رأسها إيجاباً.. وأبقت عينيها على الشجيرات الشائكة

المنخفضة، التي تصل ما بين المزروعات والماء، فتشكّل حدوداً للشاطىء.. وقالت:

ـ اعتدت أن أقضي العطل المدرسية هنا مع أفضل صديقة لي.. والداها يملكان المنزل الذي أقيم فيه حالياً.

كانت تعرف كل جزء من هذا الشاطىء، فقد اعتادت في تلك الصيفيات الطويلة البعيدة، أن تمضي يومها مع تريسيا قرب البحيرة أو داخلها.. الآن، أصبحت تريسيا زوجة وأماً.. بينما تحاول لانث إعادة جمع شمل حياتها.

قالت: «الأفضل أن نعود.. فالأرض هنا مستنقعية».

نظرت إلى قدميه وأضافت بشيء من الخبث: «لن ترغب في أن يبتل هذا الحذاء».

ضحك بنعومة، وقال: «لاحظت أنني أرتدي ملابساً غير مناسبة».

وهكذا رد لها الصاع صاعين.

عضت على شفتها، واستدارت. وبالطبع، اختارت ساقها اللعينة تلك اللحظة بالذات لتخذلها مجدداً. فشهقت، وتراجعت إلى الخلف، لكن بعد فوات الأوان.. ووقعت بين الشجيرات الشائكة، بعد أن ترنحت قليلاً فغاصت قدمها في البحيرة.

وعلى الفور، تملكها الذعر.. ولشدة رعبها، بقيت عاجزة عن الحراك للحظة، لكنها عادت وجاهدت لتتحرر من المياه.

وقفت متشنجة، ثم اندفعت بسرعة لتتجاوز أليكس. ركضت يائسة ودون وعي على الرمال الساخنة، آملة أن تصل الى بر الامان.

***

٣ ـ نار من قلب الماء

كادت تصل الى الأرض الصلبة حين أمسكتها يدان قويتان، وشدّتاها بقسوة إلى أن توقفت عن المقاومة. ومالت نحوه بعجز، وقد غاب الذعر ليحل الإرهاق والخجل مكانه.

قال أليكس بهدوء: «لا بأس عليك.. لا بأس يا لانث.. أنت آمنة».

ردّت بصوت مخنوق: «أعلم».

وحاولت أن تبتعد عنه، فقد كان من السهل الاستسلام دون تفكير لقوته وسلطته.

قالت لقلبها الخافق: «هذه مواساة بسيطة ليس إلاّ».

لقد منحها الشيء الوحيد الذي تحتاجه في تلك اللحظة.. دعمه ومساندته.

استدار بسرعة، وأجبرها على أن تستدير معه، بحيث وفرت لها كتفاه العريضتان غطاء من النظرات الفضولية.. ثم تركها، فألقت حولها نظرة سريعة أنبأتها بأن أحداً لم يلاحظ ما حدث.. وأحست بارتياح جزئي لتفاديها بعض الإذلال.

لكن حين نظرت إلى أليكس مجدداً لم تستطع الخلاص من هاتين العينين اللغز.. عينان خطفتا أنفاسها وخدرتا حواسها. تمتمت: «لا تشفق علي».

وظهر في عمق عينيه الباردتين وميض وحشي، وهو يقول:

ـ أشفق عليك؟ أنا لا أشفق عليك يا لانث براون. بل أنا أبعد ما يكون عن ذلك.

شدّت أصابعه على ذراعها، وأدارها نحوه ليدسّ يده تحت مرفقها، ويضيف:

ـ حسناً جداً.. سنسير تحت ظلال الأشجار.. ما هي أنواع الطيور التي تصادفينها عادة في هذه البحيرات؟

فأجبرت لانث نفسها على الرد:

ـ أعشاش طير الزقزاق تنتشر في الرمال.. وفي الربيع والخريف، تشكل البحيرات ملجأ مؤقتاً للطيور المهاجرة.

بدا لها صوتها وهي ترد، كليلاً عادياً.. لكن، ما أن وصلا الى المنزل، حتى أضحى الذعر الذي انتابها طيّ النسيان.

قالت: «أود الجلوس في الخارج».

انتظر أليكس حتى اختارت مقعداً قديماً مريحاً، ثم أسند نفسه على حافه الشرفة، وراح ينظر إليها قبل أن يسألها:

ـ أخبريني لما تختار امرأة تخاف الماء الإقامة في مكان لا يبعد عنه سوى خمسة وعشرين متراً.

إنها تدين له بتفسير.. لكن كل ما استطاعت أن تقوله: «أنا بحاجة لأن أعتاد على الماء مجدداً».

واخترقت نظرته الثاقبة قوقعة هدوئها الهشة، فمزقتها إرباً.. وبعد صمت متوتر، فاق طاقتها، سألها:

ـ ألم تتمكني من السباحة منذ هاجمك القرش؟

فردت بصوت أجش: «لا، والأمر لا يتعلق بالماء.. بل بالأسنان.. فأنا أحلم بالدلافين، أراها تلعب وتبتسم، ثم تنقلب الابتسامات فجأة إلى أسنان.. و.. أحس بخوف من أن يمسك بي شيء ما، ويجرني نحو الأعماق..».

قال بصوت عميق: «لانث».

وتقدم ليجلس إلى جانبها ويمسك يدها بيده القوية الدافئة.

تخبط قلبها بين ضلوعها.. وتمتمت بسرعة:

ـ أنا لا أخشى الماء.. فأنا أستخدم المغطس، كما أقود سيارتي فوق جسر الميناء دون أن يرف لي جفن. حتى أنني أسير على طول الشاطىء.. لكن إذا ما.. حسناً جداً، لقد رأيت بنفسك.

ـ إذن.. جئت إلى هنا لتتغلبي على خوفك؟

ارتجفت لانث للسخرية القاسية في صوته، فأجابت وقد سمّرت عينيها على سطح البحيرة:

ـ تعلمت السباحة هنا.. وهنا كنا أنا وتريسيا نلعب في المياه الضحلة.. ثم علمتنا أمها السباحة.. وبدا لي من الطبيعي جداً أن أعود إلى هنا، لأكون في أمان تام. في أول صيف لنا أمضيناه سمحت لنا بالسباحة حتى الجدار.. وكان هناك، أمامنا مغرياً ومحرّماً..

ـ ماذا تعنين بالجدار؟ أعتقد أنه حدود المياه العميقة، فلقد لاحظته.. إنه واضح بشكل مذهل.

ـ إن قعر البحيرة هو تحت مستوى البحر. وهذا العمق، وصفاء المياه، وبياض الرمل اللامع عوامل تجمّعت كلها لتشكل «الجدار».

أشاحت بوجهها، وحاولت سحب يدها من يده. كانت نبضاتها تتسارع في شرايين معصمها الرقيقة الهشة، وحين نظرت إلى يده، لاحظت أصابعه النحيلة الطويلة.

فكرت بدهشة أنها ليست مسترخية، لا.. فقد ظهر التوتر في تلك الأصابع السمراء، وتكاد تشعر به حول أصابعها.. وهي لا تلومه فلا بد أنها تحرجه جداً.. وهو لا يستطيع الابتعاد بسرعة.

استقامت في جلستها، وسرّحت بنظرها بعيداً، دون أن ترى شيئاً، ثم أكملت حديثها:

ـ كانت السباحة عبر ذلك الجدار أشبه باختراق حاجز ما.. وكلما توغّلت كلما أحسست بنشوة أكبر. وفي تلك اللحظة التي اخترقت فيها الجدار وانطلقت إلى المدى الازرق الواسع، أحسست أنني قوية ومختلفة، وأنني شخص يستطيع صنع المعجزات.

قال بحزم: «أنت فعلاً من النوع الذي يستطيع فعل أي شيء.. وما تشعرين به أمر مؤقت.. إنه رد فعل طبيعي على المحنة والألم والصدمة والرعب».

وتصاعد الغضب فيها.. مفاجيء، حار، وشرس.

ـ أنا عاجزة حتى عن وضع قدمي في الماء! كنت آمل أن يساعدني المجيء إلى هنا..

ـ إذن.. لم تنجحي بعد. أعطي نفسك بعض الوقت، وسوف تنجحين.

وقف على قدميه، وسار نحو الحافة، واستند اليها وراح ينظر إلى البحيرة.

راحت لانث تراقبه وهو يتحرك برشاقة.. وقالت ببرودة: «بدأت أتساءل حول جدوى ذلك.. لقد رأيتني حين زلت بي القدم. هذا ما يدعى نوبة ذعر».

ـ أنت تتوقعين الكثير، وفي وقت قصير جداً. هل استشرت أحداً؟

هزت رأسها: «ما عدا تريسيا، لا أحد».

ـ لماذا؟

حملت نبرة صوته تجهماً مكبوتاً، فشدت يديها في حجرها. وركزت على الشمس التي عكست أشعتها عليهما، فأبرزت بشرتها الشاحبة.

قالت ببطء: «لأنني أشعر أني.. ناقصة، على ما أعتقد. ولم أدرك هذا حتى جئت إلى هنا.. فأنا لا أواجه مشكلة في برك السباحة.. كنت أعرف أن البحر يخيفني، إلا أنني لم أكتشف السبب. ظننت أنني بحاجة إلى أخذ الأمور بروية، فأصبح على ما يرام بعد وقت قصير».

أدار رأسه لينظر إليها، وقد بدت عيناه كشعلتين في ظلام وجهه.

ـ لا يجب أن تكوني وحدك.. أين عائلتك؟

ـ أمي متوفية.. وأبي مشغول بزوجته الثانية وعائلته الثانية.. على أي حال، لست بحاجة إلى أحد.. وماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟

رفعت رموشها الثقيلة وتمكنت من لوي شفتيها بما يشبه الابتسامة، وأضافت:

- في الواقع.. بدأت اليوم الخطوة الاولى.. بقيت في الماء جزءاً من الثانية، ولم أصب فعلياً بالهستيريا.

قال بحدة: «لقد رأيت كم كلفك هذا.. أنت بحاجة إلى المساعدة، وليس إلى العزلة وقوة الإرادة. هل هناك من يمكنه أن يقيم معك؟ تريسيا مثلاً، صديقتك؟»..

- لا.. إنها متزوجة ولها طفل صغير، وحياة خاصة.

ثم غطت تثاؤبة بيدها، وقالت: «أنا آسفة.. لكنني متعبة فعلاً».

فقال بلهجة آمرة تقارب نفاذ الصبر: «إذن أدخلي ونامي».

تهاوت وهي تقف. لكنها كانت مستعدة لليد الرشيقة التي امتدت هذه المرة لتساندها.. وكررت: «آسفة».

- لِمَ الأسف؟ ألأنك حاولت البقاء في الماء بالرغم مما يكلفك هذا معنوياً وعاطفياً؟ ربما كان هذا غباءً، لكنه يثير الإعجاب.. هل ستكونين على ما يرام لوحدك؟ سأبقى هنا لو أردت ذلك.

رأت لون عينيه يزداد عمقاً، فتراجعت، وأجابت: «لا! لا.. أنا بخير».

أجبرتها قوة إرادتها على الصمت. وأبقاها الصمت الثقيل جامدة ولم تلتفت إليه.. لكن عيناها لاحظتا ارتجاف عضلة فكه.

وقال بعد حين: «حسناً جداً.. لا تعودي إلى الماء مرة أخرى».

هل يظن حقاً أنه يحق له إصدار الأوامر، وهل يتوقع منها أن تطيعه؟ قالت وهي تتنفس بسرعة: «قد تكون الصدفة أمراً جيداً».

أجبرها على اقفال البابين الأمامي والخلفي. وبعد أن غادر، جلست تنتظر إلى أن سمعت صوت مركبه يبتعد. ثم ترنحت حتى دخلت الى غرفة النوم، حيث ارتمت على السرير الضيق، ونامت نوماً عميقاً.

حلمت بالدلافين.. ناعمة لماعة لعوبة، رشيقة قوية غامضة، عيونها

بلون البحر ساعة الفجر، وقاومت لتستيقظ.. لأنها تعرف ما سيحدث.

لكن، وفيما هي تسبح معها، انقلبت إحداها إلى حوري بحر.. أمسك بيدها، وسحبها نحو الشاطىء، فتوقفت عن المقاومة وغرقت في عينيه الشاحبتين الشفافتين.

حين استيقظت، تململت متعبة، وفكرت بقلق أن معنى هذا الحلم جليّ.. وسرت رعشة في جسدها.. فمثل هذا التجاذب الفوري لم يحصل لها من قبل.. لكنها سمعت ما يكفي عن «الانجذاب» وأعراضه، لتتقبل هذا الأمر بسهولة.

لم يبد أليكس أي دلائل على إصابته بالأعراض نفسها.. لكن، هل ستتعرف على هذه الأعراض إذا ما أظهرها؟ فقد حرصت هي على إخفاء ردة فعلها.. وهو أكثر تماسكاً منها. وكائناً من كان، لم يكن يكشف الكثير من أفكاره أو مشاعره، كما لم تكن انفعالاته تبدو على وجهه الرائع القسمات، أو في تلك العينين النافذتين، وذلك الفم المميز.

استلقت لفترة، وتركت جسمها المسترخي يبرد تدريجياً، وحرارة عواطفها تموت.. إلى أن التفتت إلى ساعتها لتجد أنها السادسة إلا ربعاً. وفي تلك اللحظة، وفيما كانت تفكر في الاستحمام، تذكرت أين رأت اسم أليكس كونسيدين من قبل.

لقد رأته في صفحات الأعمال في إحدى الصحف، حين كانت تستعيد عافيتها بعد الجراحة التي أجريت لساقها... أليكس كونسيدين الذي يعيش في عزلة عن العالم.. أليكس كونسيدين الفاحش الثراء، الذي بدأ حياته من الصفر في المدرسة الثانوية وقبل أن يتخرج، حيث جمع ثروة من أقراص الكومبيوتر.. واستمرت ثروته في التزايد، لأنه كان الأفضل في ميدان عمله.

شغلت ذكرى اسمه، والصورة المرافقة له، عقلها.. وأدركت بأن الحياة سمحت بأن يجتمعا، فوقفت على عجل واستحمّت بماء بارد، مؤكدة لنفسها بأن صدمة المياه الباردة ستفيدها.. ثم أدارت جهاز التلفزيون

لتشاهد الأخبار بتركيز يائس.

وبعد حين، أطفأت لانث الجهاز وتوجهت الى المطبخ لتحضّر العشاء.

إذن.. أليكس كونسيدين ينتمي الى عالم الأثرياء، حسناً جداً.. لقد أدركت ذلك منذ البداية.. حين رأت منزله، ولاحظت ثقافته العالية.

لذلك، لا داعي لهذا.. لهذا العذاب الغبي. إنها تهواه، لكن يمكنها أن تتغلب على مشاعرها هذه، وسرعان ما ستنساه، فهي لن تراه مجدداً.

ثم، هناك أمور أخرى تشغل فكرها.. وفكرت في أنها خطت خطوة أولى.. لقد وقفت فعلاً في الماء.. أوه.. حصل ذلك صدفة، وكادت تفقد الوعي رعباً. لكن، ولبضع ثوانٍ، بقيت قدمها في الماء.

ستعيد الكرة في الغد، ستتعمد ذلك هذه المرة وستتمكن في النهاية من الوقوف في البحيرة، دون أن يثقل ذلك الرعب البشع كاهلها.. وحين ستتمكن من هذا، سيكون الأسوأ قد مرّ وانتهى. وستعود إلى المحيط دون أن تخاف المجهول القادم من تحت الماء.. مجهول يحمل الدم والألم، والموت المشؤوم بين فكيه.

لم تستطع الاسترخاء بعد العشاء ولعل السبب يعود الى أنها نامت نوماً ثقيلاً خلال النهار.. حين تلاشى آخر شعاع من نور الشمس وراء التلال، راحت تتأمل السماء الصافية، المرصعة بالنجوم، وكان سطح البحيرة يلمع بلون أسود وكأنه زجاج بركاني. وسعت لانث للتخلص من قلقها، فخرجت تتمشى على الشاطىء.

قبل حلول عيد الميلاد بأسبوع، هبّ أول إعصار أنعش الأراضي الزراعية.. وحمل الهواء الرطب عطر الخضار النامية بدلاً من رائحة التبن الحارة الجافة.. وتغلغلت هذه الروائح في مسام لانث وداعبت أعصابها، وكأنها تدعوها، وتغويها لتخرج إلى الرمل البارد اللامع، وتعدها ببهجة سرية، ولذة خفية مثقلة بالذنب.

صاحت بصوت مرتفع: إن هذه المشاعر مجرد انجذاب مثير للأعصاب، لكنه بسيط.. إنه رجل، وهي امرأة..

وراحت تقنع نفسها، وهي تتحرك دون هدى على الرمل الأبيض.. بأنه لن ينجذب إلى امرأة تعاني من هذه الندبة البشعة في ساقها.. امرأة عرجاء تفتقر الى الرشاقة، وتعجز عن الرقص والجري.. فبإمكانه الحصول على أيّ امرأة في العالم.. حتى وإن لم يكن ثرياً بهذا القدر.

بدأت ساقها تؤلمها.. فاستندت إلى جذع شجرة بضع دقائق قبل أن تعود أدراجها.. إن استعادة قدرتها السابقة أمر مهم، لكن يجب ألا تبالغ.

وعلى بعد حوالى مئة متر، من منزلها، تصلبت.. لماذا تتصرف كالقطة حين تشعر بخطر ما يهددها. وعلى الفور، تبدّل الخوف إلى شعور آخر. فقد تعرفت إلى الرجل الواقف عند حافة البحيرة، هامة طويلة أنارت جزءً منها النجوم وغطى الجزء الآخر الظلام.. أخذ الترقب يضج في دمها وقلبها يختلج بين ضلوعها.

لم يتكلم.. وبقيت هي صامتة، لكنهما سارا معاً نحو الشرفة... ولم يجلس أي منهما.. بل وقفا بعيدين عن بعضهما خطوات قليلة، كعدوين ينتظر أحدهما استسلام الاخر.

قال أليكس باقتضاب جاف: «كان يجب أن أعرف أنك على ما يرام».

ـ بالطبع أنا على ما يرام.

ـ هذا صحيح.

أخذ قلب لانث يتخبط في صدرها.. لو بقي بعيداً لما رأته مرة أخرى.. عرفت هذا كما تعرف كل غرزة في جرحها على طول ساقها. وربما أدرك هو أيضاً أن عودته فتحت باباً يفضل كلاهما إبقاءه مقفلاً.

يجب أن تتراجع بطريقة ما، وتقفل هذا الباب بحزم ورائها.. لتصد الشوق المغوي.. فهي ترفض الانغماس في علاقة رومانسية قصيرة.. لا سيما مع رجل مثل أليكس كونسيدين.

لكنها قالت بصعوبة: «لطف كبير منك أن تأتي.. لكن لم يكن هناك داع لذلك.. فأنا بخير».

اعتادت عيناها على ظلمة الليل، فرأت الابتسامة القلقة التي وجّهها

لها، ولمحت ومضة عينيه قبل أن يسدل عليهما رموشه.

قال: «أنا لست شخصاً لطيفاً في العادة.. ومافعلته غير منطقي».

قالت بحدة: «غير منطقي بقدر إخفاء هويتك عني؟».

فهم على الفور ما عنته.. فازدادت قساوة وجهه، وضاقت عيناه، مما أعطاه مظهراً خطيراً: «وهل أنتِ من النوع المتكبر يا لانث؟».

- لا.

- إذن.. هل شكّل الامر فارقاً؟

- أعتقد أنه من الصعب أن تقول للناس إنك ملك «أقراص الكمبيوتر».

- هذا غير مهم.

وأخذ يراقبها باهتمام.

صحيح.. الأمر لا يهم.. ما عدا أن المعلومة بددت بعض أحلامها، قالت: «لا أعتقد أن هذا مهم».

وتمنت لو أنها تتمتع بما يكفي من التعقل لتصمت.

- إذن.. ألا زلنا صديقين؟

وهل كانا صديقين؟ أسرّ لها قلبها أن الصداقة آخر ما تريده منه.. وعارضه عقلها، فمن المؤكد أنها بداية صداقة، لأن لا شيء آخر يمكن أن يجمع بينهما.

قالت بثقة: «طبعاً».

وأعطت رنة خشنة خفية القوة لضحكته الهادئة، وقال:

- إذن، لن أتجاوز حدودي.. ليلة سعيدة يا لانث.

- ليلة سعيدة.

شعرت لانث أنها عاجزة عن الحراك وأن جسمها كله يتألم من أمر لا تريده، فأجبرت نفسها على البقاء على الشرفة إلى أن هدرت سيارته مبتعدة.. لماذا جاء؟ الإحساس بالمسؤولية، هو السبب بالطبع. كان يحتاج لأن يتأكد بنفسه من أنها استعادت عافيتها بعد سقوطها في الماء.. والآن،

وبعد أن أتمّ واجباته، رحل ولن تراه من جديد.

أجل.. لا بد أن الأمر كذلك.. وأيّ فكرة خطيرة أخرى يجب أن تبعدها عن ذهنها.

دخلت الى المنزل مرتجفة، وساقها تتقطع ألماً، وأقفلت الباب ورائها، وكأنما تحاول بذلك أن تبعد مخلوقاً ليلياً متوحشاً.

قالت المرأة الجالسة خلف الصندوق وهي تحسب ثمن الأغراض التي اشترتها لانث: «هل تخزنين الطعام استعداداً للإعصار؟».

سألتها لانث مقطبة: «أي إعصار؟ لقد مر بنا واحد لتوه..».

- ألم تسمعي بالخبر؟ قالوا في أخبار هذا الصباح أن إعصاراً آخر.. قد يكون أكثر قوة من ذاك الذي هبّ قبيل الميلاد.. يتكوّن في بحر المرجان.

- لم تحدث ثلاثة أعاصير في سنة واحدة من قبل!

بدت المرأة متجهمة، وهي تقول: «أعتقد أن السبب هو التغيّر المناخي في كوكب الأرض».

بعد أن ودّعتها، حملت لانث مشترياتها وغادرت المتجر. في الخارج، كانت الشمس تسطع فوق الماء، في سماء زرقاء صافية، وكانت الحرارة مرتفعة، وبدا لها أن هبوب اعصار أمر غير محتمل.

حين تصل إلى المنزل، ستسير نحو الماء وتضع قدميها فيه.. لا، ربما عليهاأن تفعل هذا هنا حيث يلعب الأولاد، شقت طريقها على الرمل، وهي تعرج وقد أمسكت كيس مشترياتها البلاستيكي بيدها.

تطلّب منها السير نحو طرف الماء جهداً وقوة إرادة... وقفت وقدميها على بعد خطوات قليلة من الماء.. لكن دواراً هدد بأن يدفعها على ركبتيها.. وقفت هناك متجهمة، وحنجرتها وفمها جافين، وقلبها يخفق، وأشعة الشمس تحرق رأسها، ثم انحنت لتخلع صندالها، وتضعه إلى جانب كيس مشترياتها.. استقامت وأخذت نفساً عميقاً متقطعاً، وخطت خطوتها الأخيرة.

تسربت المياه من تحت أصابع قدميها، ثم إلى باطن القدمين، وارتفعت

لتصل إلى كاحليها . . تملكت رهبة وحشية جسمها، وغمرتها بحيث كادت تتحوّل رعباً . .

كبتت الاندفاع الغريزي المذعور الذي كان يدعوها للهرب، وتراجعت بحدة لتخرج من الماء الضحل، وأجبرت نفسها على الاستدارة والسير ببطء.

أخذت تفكر بعناد: «واحد . . اثنان» . . خطوتان هما كل ما يلزمها . . «والآن توقفي . . هنا تماماً».

جاهدت رئتاها لتتنفسا . . شهقت، وتساءلت عما إذا كان هناك ما يستحق هذا العذاب.

تقدمت منها فتاة في سن يقارب الخامسة وهي تتمايل . . عينان سوداوان كبيرتان، شعر بلون الكستناء المشوي، وبشرة تلمع سمرة . . قالت بصوت صغير صارم، اخترق ذهول لانث: «كان يجب أن تعتمري قبعة».

ابتلعت لانث بريقها . . وردت بصوت خشن: «أعرف».

ـ أمي تقول: «لا تخرجي أبداً دون قبعة . .».

ـ أمك على حق.

ـ وهل لديك قبعة؟

ـ أجل . . لدي قبعة . . قبعة قش كبيرة وعليها زهور.

تراجعت سرعة نبضات قلبها، وتضاءل رعبها، وعادت أنفاسها إلى وتيرتها الطبيعية.

فقالت الفتاة، تردد كلام أمها: «لا فائدة منها في السيارة . . لن تمنع عنك الحروق إذا تركتها هناك».

نظرت لانث إليها نظرة تهذيب وسألتها:

ـ ماذا لو وعدتك بألا أخرج مرة أخرى دون قبعتي؟

وبختها صديقتها الجديدة ويدها فوق فمها لتمنع نفسها من الضحك: «تأكدي من ألا تفعلي».

وشاركت لانث الصغيرة الضحك.

قالت الفتاة وقد بدا عليها الجد فجأة: «أوه . . لك ساق مزعجة . .

ماذا حصل لها؟».

ـ لقد جرحتها بشيء حاد جداً.

ـ تبدو مزعجة!

انقباض عضلات ظهرها جعلها تستدير . . وماتت ابتسامتها حين توقفت سيارة على الطريق المحاذي للشاطىء لينادي رجل بصوت ناعم: «لانث».

نظرت الفتاة إلى أليكس وسألت: «أتعرفينه؟».

نزل من السيارة، أنيق في ثيابه الرائعة التفصيل، و قد أخفت نظارة عينيه المذهلتين.

قالت: «نعم».

تمنت لو توجهت مباشرة إلى المنزل، وتمنت لو أن هذه الفتاة المرحة لم تلهها . . لكانت الآن آمنة، بدلاً من أن تقف هنا وأليكس يسير بخفة ورشاقة، نحوها.

قالت الصغيرة: «تقول أمي إنه يجب ألا أركب السيارة مع أحد».

فقال أليكس مبتسماً:

ـ أمك على حق . . لا تركبي أبداً السيارة مع شخص غريب. لكنني لن أعرض عليك أن تصعدي في السيارة معي، ولانث صديقتي.

تخبط قلب لانث في صدرها . . وباستسلام، راقبت الصغيرة تقع بدورها تحت سحره الباهر. فمنحته ابتسامة عريضة لامعة، وقالت:

ـ إنها لا تعتمر قبعة، ولا أنت.

قال أليكس: «لن أبقى خارج السيارة كثيراً. ومن الآن فصاعداً، ستتأكد لانث من أن تحمل قبعتها معها أينما ذهبت».

لم يلتفت إلى لانث . . بل صبّ اهتمامه على الصغيرة، التي سألت:

ـ وهل ستعرض عليها أن تركب معك في السيارة؟ ساقها مزعجة . . يجب أن تقبّلها لتشفى . . أمي تقول . .

ـ كليون . . كليون . . ! تعالي إلى هنا.

قالت الفتاة: «هذه أمي . . يجب أن أذهب الآن . . وداعاً».

ابتسمت لكليهما وركضت فوق الرمال البيضاء، بخفة تحسد عليها.

وبعد نظرة سريعة إلى وجه لانث، قال أليكس: «إنها مجرد طفلة..».

قاطعته: «لا يزعجني ما يقوله الأولاد.. إنهم صادقون، صريحون، ويريدون معرفة الحقيقة. ما أكرهه هو الشفقة من الناس الذين يشعرون بالأسى من أجلي، إذ تؤكد لي هذه الشفقة أن هذه الندبة ستبقى علامة فارقة في حياتي، وأنها ستنقص من قيمتي كإنسانة، وأنا أرفض مثل هذه الشفقة».

ألقت بكلماتها الأخيرة بحدة، قبل أن تدرك وقد اعتراها الإحراج، أنها تكلمت بسرعة، وأن الغضب تملكها فجأة.

التوى فم أليكس بابتسامة غريبة، وقال: «أنا لا أشفق عليك».

فردت مرتبكة: «أنا لم أقصد أن أعظك.. ستصبح ساقي بخير بعد عملية جراحية أخرى، وبعد تقوية عضلاتها. الحقيقة أنّ قدرتي على الاحتمال قد نفدت فاسترسلت قليلاً.. أنا آسفة».

قال ساخراً: «وأنا أيضاً أميل إلى الاسترسال، هل جئت إلى هنا سيراً؟».

ـ أجل.

ـ وهل تريدين أن أوصلك؟

ـ سيكون هذا عظيماً.

لو قصدت حقاً تمرين ساقها لعادت مشياً.. لكن الطريق مغبرة ومحفّرة، وهي متعبة... ذاك التعب يغمرها كلما واجهت ذعرها، لكنه تلاشى مع وصول أليكس.. وقالت لنفسها بسخرية، إن عليها أنّ تتوقف عن الاحتجاج وخلق الأعذار.

فقد تكون هذه الصدفة آخر لقاء لهما، فهي لا تنوي تعزيز صداقتهما.. وهو يأتي بحثاً عنها.

وبينما كان يلتقط كيس مشترياتها، نفضت الرمال العالقة على قدميها وانتعلت صندالها.. وعندما كادا يصلان الى السيارة، تذكرت ما قالته صاحبة المتجر، فسألته: «هل تعلم أنه من المتوقع هبوب إعصار آخر؟».

هز رأسه مقطباً: «ألم تعرفي؟».

ـ لم أكن أعرف.

ـ ألا تشاهدين التلفزيون، أو تستمعين إلى الراديو؟

هزت كتفيها: «نادراً ما أشاهد التلفزيون.. وأطفئه قبل النشرة الجوية».

ـ من الأفضل أن تبقي عينك عليه من الآن وصاعداً.

وفتح الباب لها، ثم ناداها بعد أن أصبحت داخل السيارة: «لانث».

أثار المرح الواضح في صوته أعصابها: «ماذا؟».

ـ في المرة القادمة حين تخرجين تأكدي من اعتمار قبعة.

ضحكت ضحكة مرتجفة واستقرت في مقعدها، ووضعت حزام الأمان، بينما وضع كيس الطعام في الصندوق.

ما أن جلس إلى جانبها، حتى شغّل المحرك.

ـ رأيتك في الماء.. هل أنت بخير؟

ـ أنا بخير.. لم يكن الأمر سهلاً.. وكنت أرتجف حين خرجت.. لكن، سرعان ما بددت كليون هذا.

نظر إليها بقسوة: «لكنك لا زلت بيضاء كالزنبقة، تناولي الغداء معي».

أي شخص متعقل سيرفض.. لكن ما الضرر؟ فالغداء مع رجل مثير للاهتمام ليس من الامور التي يفترض تجنبها حتى وإن كان فاحش الثراء.. بالرغم من أنها كانت تدرك أن عليها أن ترفض ليرتاح بالها في المستقبل، قالت: «أودّ هذا كثيراً».

قال: «جيد».

وانطلقت السيارة فقالت: «يجب أن أغير ملابسي».

ـ أنت رائعة كما أنت.

كان قميصها المائل إلى الصفرة، وبنطلونها القصير يناسبانها. وهما قديمان لكنها تبقيهما في خزانة ملابسها بسبب الراحة الفائقة التي يوفرانها.. وفكرت متجهمة في أن منزله يدل على حبه للأناقة الهادئة الرفيعة

المستوى لهذا فهو يستمتع برفقة المرأة الانيقة على الأرجح، المرأة الجميلة التي تواكب الموضة وتفهم معنى الأناقة.

إذن، لم يدعوها بدافع الشفقة، بل دفعه الى ذلك إحساسه القوي بالمسؤولية.. وهي قبلت دعوته لأنه جعلها تشعر بالحياة مجدداً.

وبعد عشر دقائق، كانت تتنعم في هدوء وبرودة جو منزل أليكس كونسيدين.. أكثر الرجال إثارة للاهتمام.. ولأنها لن تستسلم لسحره المحموم، ستتمكن من الاستمتاع بالوقت الذي ستقضيه معه، وستكمل بعدها طريقها دون ندم.

تناولا الطعام على الشرفة، وكانت الوجبة لذيذة..

راحت تختزن الذكريات كما يخزّن السنجاب طعامه.. حفظت تعابير وجه أليكس الأسمر الذكي، وهما يتحدثان في مواضيع متنوعة.. الكتب، مستقبل الانترنيت، طعامهما المفضل، مستقبل العالم.

وسع ذهنه الدقيق السريع آفاقها، وأحبت طريقة ضحكه.. وأحبت أن تدفعه إلى الضحك.. استفهم أكثر عن عملها، فتحدثت بحماسة عنه.. وسعدت بأسئلته، وتعليقاته الذكية الماكرة.

راقبت لانث خلسة انعكاس الشمس على بشرته البرونزية.. ولاحظت، وهما يشربان القهوة بتناغم صامت، أن قسمات وجهه أشبه بتلك الموصوفة في الأساطير، والمنسوبة إلى الأبطال والأمراء..

وتماشت قلة كلامه مع مظهره... وفكرت بسخرية أنه رجل غامض.. وحاولت إنقاذ نفسها من هذا المزيج الخطير. فها هي تترك تعقّلها وتسعى وراء خيال محفوف بالمخاطر، وراء فارس أسود مجهول.

سألها متكاسلاً، وصوته العميق يشقّ الجو الساكن: «هل ترغبين في السير قليلاً؟».

تجاوبت لانث مع الفكرة بامتنان: «ما دمنا في ظل الأشجار».

اقترح وهو يراقبها بعينين نصف مطبقتين: «يمكننا أن نقترب من الماء لبضع دقائق».

أجفلت لانث.. وبعد لحظة قالت خجلة من التردد الذي ظهر في صوتها: «حسناً جداً».

لم يلمسها وهما يسيران نحو حافة البحيرة.. خلعت صندلها، وشدت على أسنانها، وأخذت تنظر إلى المياه الشفافة على الرمال اللامعة المحرقة. راحت تشجّع نفسها... وحين خطت خطوة صغيرة إلى الأمام، قال لها أليكس: «استرخي».

ـ القول أسهل من الفعل.

لكنها لم تعد تفكر في ضربات قلبها المتزايدة أو في خوفها المتصاعد، لأنه يقف بالقرب منها.

مد يده ليمسك بيدها.. فشقّت لمسته طريقها في شرايينها كالبرق، وخطت الخطوة الأخيرة فوقفت وأصابع قدميها في الماء. نقّلت نظراتها دون أن ترى شيئاً على سطح المياه الزرقاء القاتمة، وقاومت إحساسها بالغثيان وبرودة الذعر.

قال: «لديك الشجاعة الكافية لانث».

وترك يدها، متجاهلاً تعلق أصابعها بأصابعه.

ـ لا لست بهذه الشجاعة...

وارتجف صوتها.. لكنها بقيت صامدة، والمياه الهادئة بالكاد تبلل قدميها. أخذت نفساً عميقاً، أحست من بعده بقشعريرة ارتياح صغيرة، لأنها تمكنت من التحمل.

أكمل: «أوه.. بلى.. لقد تحملت أسوأ اختبار يحدث لإنسان، وأنت مصممة على التغلب على آثاره.. وهذا يتطلب شجاعة فائقة».

أخذت بضعة أنفاس قصيرة أخرى، فقال بحدة: «المبالغة في التنفس لن تفيدك».

ـ أنا لا أفعل هذا.. إنه مجرد تمرين تنفس.

ـ وهل يساعدك؟

اتسعت شفتاها في ابتسامة ساخرة، وأجابت: «لم أهرب راكضة

صارخة من الماء، إذن هذا مفيد».

لكن، كأن الكلمات فكّت عقدة الخيط الرفيع الذي يثبت سيطرتها على نفسها، فاستدارت وخرجت مضطربة من المياه الزرقاء الدافئة، لتقف مرتجفة، وتنظر نحو أشجار الصنوبر، دون أن تراها، والرمل يحرق باطن قدميها.

قال أليكس بخشونة: «يا إلهي.. أنا آسف.. لقد ظننت وبكل غرور، أن وجودي سيسهل الأمور».

رفعها بحركة سريعة قوية، وحملها إلى ظل الأشجار الأخضر القاتم.

تهاوت حين أنزلها على قدميها، فأمسك بها ورفعها مجدداً.. وتمسكت لانث به، وشعرت تحت أصابعها الحساسة بحركة عضلاته من فوق قماش قميصه القطني.

ووقفا هناك للحظات بدت وكأنها دهر، وضمها الى صدره الواسع.. فتبدد خوفها، وشعرت بقوة ذراعيه حولها وبرائحته الدافئة اللطيفة.

أحست كذلك بقوة عضلاته، وبدقات قلبه المتسارعة.. وبردة فعله على قربها، فذابت بين ذراعيه وقد أضرم النار في كيانها، نار حادة محرقة، اجتاحت كيانها وأحاسيسها.

قال بكلمات عميقة مثيرة في هدوئها: «لا بأس عليك لانث..».

وتوقفت أنفاسها في حلقها.. وانتظرت.

عندها.. أطلقت غريزة قديمة فيها صيحة إنذار.. ورفضت الإنجراف الشرس المحفوف بالمخاطر.. فتراجعت إلى الوراء.. وللحظة اشتد طوق ذراعيه حولها، ثم تركها.. أشاحت بوجهها، وتراجعت خطوتين إلى الوراء، نحو الأمان.

قالت بصوت أجش: «آسفة».

ـ أنا آسف.. ما كان عليّ أن أقنعك بالنزول إلى الماء.

كان الغضب يحترق تحت كلماته الهادئة... ونظرت إليه نظرة لا تحمل سوى الصدق:

ـ أنت لم تقنعني.. كان عليّ أن أفعل ذلك.. وإذا لم أتغلب على خوفي هذا، لن أتمكن من العمل ثانية. على الأقل، لم أشعر بالغثيان هذه المرة، وهذا يعتبر تقدماً.

بذلت جهداً لتجنب النظر إلى اللمعان المتوحش في عينيه، لكنها كرهت الابتسامة الساخرة التي حلت مكانه.

ـ إنه تقدم فعلاً.

وسارا معاً تحت ظل الأشجار نحو المنزل.

كان مارك بانتظارهما، ولم تتغير أساريره حين سأله أليكس: «ما الأمر؟».

ـ اتصال هاتفي يا سيدي.

ـ سأرد على المكالمة من مكتبي.

ـ حاضر سيدي.

واستدار ليذهب، فقال أليكس: «أحضر للآنسة براون شراباً.. أرجوك».

قالت: «لا.. شكراً لك، لا أحتاج إلى شراب».

أدركت أن صوتها متصلب.. لكنها كانت تشعر بالضعف والتوتر، ولا ترغب بأن يحضر لها مارك أي شيء.

تفرسّ أليكس فيها، ثم هز رأسه ورافق مارك. بدا جلياً أنه صرفها من تفكيره حين قال له مارك شيئاً بصوت خفيض.. وكانا لا يزالان قريبان منها، فلاحظت لانث أن كتفي أليكس قد تصلبا.

رمت بنفسها في أحضان مقعد خيزران بارد وهي تفكر.. اللعنة.. أوه.. اللعنة.. ماذا حدث لها في تلك اللحظات التي أمضتها بين ذراعيه؟ لقد تبدل عالمها كلياً.. تغيّر بشكل مربك وكأن القطبين بدّلا موقعهما فما كان شمالاً أصبح الآن جنوباً.

***

٤ ـ ستأتين معي

نظرت لانث إلى الطاولة الفخمة أمامها، وإلى جمال الغرفة البسيط المنظم. . وقالت لنفسها بحدة: «لا يمكن أن يكون هذا حباً، فالحب يتكونّ ببطء ويترافق مع التفاهم». وقد عرفت لانث الحب في الماضي، وذاقت بهجته، و هي تتذكر كم عانت حين انتزع منها. . وهذا الشوق المحموم الذي يغمرها، والذي يستفزها وكأنها كتلة أعصاب مكشوفة ومعرضة للخطر، هو مجرد انجذاب. .

تثاءبت وهي تحاول تحليل مشاعرها المعقدة المحيرّة، لتعيدها إلى مهدها الأساسي. . لقد انجذبت الى أليكس كونسيدين. . منذ رأته للمرة الأولى.

شكّل هذا الشعور تجاوباً بسيطاً مع موقف بسيط، وليس هناك ما تخشاه. . بالرغم من أنها لم تختبر من قبل شوقاً بمثل حدّته وقوته الغامرة. .

منذ خمس سنوات، كان كريغ. .

اشتد ضغطها على فكها حتى تذكرت لذعة الحزن. أجل. . كان انجذاباً فورياً ازداد عمقاً حتى أصبح حباً، حين التقت بكريغ الضاحك المتألق. . لكنها رفضت الاستسلام لمشاعرها حتى يرتبطا رسمياً.

لم يحضرها ماضيها لهذه المشاعر الجامحة التي تؤلمها الآن، وتصل الى عظامها، وتجرفها لتغرقها في بحر من العسل الحار.

لقد مالت إلى أليكس، واحترق التعقل والمنطق أمام النار الشاحبة في عينيه، وأمام تلك الهالة التي تحيط به. . . وستعترف كل امرأة تلتقيه أنه عاشق رائع، رجل يتمتع بالقدرة والهيبة اللازمتين ليعتني بها وبأولادها.

هزتّ لانث رأسها قليلاً، ونظرت إلى يدها الشاحبة كطقس الشتاء على ذراع المقعد. . حاولت يائسة أن تستجمع أفكارها المشتتة، وقد أرهقها التوتر الذي يتملكها كلما حاولت مواجهة خوفها من الماء. لكنها أدركت أنّ أفكارها تدور حول محور وحيد.

حتى كريغ، لم يوقظ فيها مثل هذه المشاعر العميقة. . كان محبوباً، مرحاً، ذكياً قوياً. . وحين مات، ظنّت أنها ستموت أيضاً لفرط حزنها.

واستعادت عافيتها بعد حين. . إنما سيبقى موته جرحاً في روحها. وهي تفكر فيه، الآن، بحب وندم فقط.

لكن هذا الشعور الجامح لم تختبره من قبل.

قال أليكس من خلفها: «آسف للمقاطعة».

هبّت مجفلة. . وتمنت ألا يكون قد لاحظ انفعالاتها. . التفتت إليه فرأت تجهماً في عينيه، وهالة متحفظة باردة تحيط به.

قالت بسرعة وهي ترتجف برداً: «لا تأسف. . في الواقع يجب أن أذهب إلى المنزل».

قطب حاجبيه وقال: «أتوقع مخابرة أخرى، وقد تستغرق بعض الوقت، هل ترغبين في الاستلقاء؟».

لكن أين مارك؟ لا بد أنه قرأ السؤال في عينيها، إذ تابع يقول:

ـ لقد ذهب مارك إلى دراغاڤيل. . لو عرفت أنك تريدين المغادرة. .

فقاطعته بهدوء: «لا بأس».

ها هي تخرق أولى وصايا النساء المتعقلات، إذ ليس لديها وسيلة نقلها الخاصة. . وعليها أن تدفع الثمن.

ـ سأجلس هنا في الخارج لأتمتع بالمناظر الطبيعية.

فقال بنظرة ثاقبة مقيمة: «تشتد حرارة هذه البقعة من الآن وصاعداً. . تعالي إلى الداخل، فغرفة الجلوس أبرد . . كما أن هناك سريراً في إحدى الغرف، يمكنك استخدامه».

وكان التعب قد غلبها. . لكنها غطّت تثاؤبها بيدها، ورفعت نظرها

لتحدق في عينيه الصافيتين واللامعتين والباردتين مثل نور الشفق، ثم قالت على مضض: «أنا أزعجك».

ـ هذا كلام سخيف.

ومد يده ليساعدها على الوقوف.

تجنّبت يده قدر استطاعتها، وسارت قربه نحو غرفة نوم مفروشة بأناقة بسيطة كسائر غرف المنزل.. ونظرت إلى السرير، وتشوقت لأن تستلقي عليه وتنام.

قال أليكس: «يمكنك الاغتسال إذا أردت، فالحمام من هناك».

وأشار برأسه إلى باب في الجدار، وخرج.. وقفت لانث للحظة، وقد سمرّت عينيها وشدّت قبضتيها على طول جسمها.. ثم أخذت نفساً عميقاً وتوجهت نحو الحمام.. كان الحمام ضخماً، فيه نافذة كبيرة تطل على البحيرة، وكانت المناشف معلقة بترتيب.. فهل يتوقع ضيفاً؟ وبخّت نفسها بشدة، لأن الأمر لا يعنيها.

وبعد أن غسلت قدميها، رفعت الغطاء الناعم عن الفراش واستلقت، وأطبقت جفنيها المثقلين وغفت على الفور.

أجفلت حين سمعت اسمها.. ثم رفعت أهدابها ببطء لترى أليكس قرب السرير، بوجهه الأسمر وعينيه اللامعتين تحت رموشه السوداء..

سألها: «هل أنت بخير؟».

ضعف صوتها في حلقها الجاف، وهزت رأسها إيجاباً.. قال:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أصطحبك إلى منزلك، فالناس يستيقظون لتوهم في الجزء الآخر من العالم، ويبدو أنها هذه ستكون ليلة متعبة بالنسبة لي، تكثر فيها الاعمال.

حسناً.. لا شك أن ثرياً مثله، يجب أن يشرف على امبراطوريته.. لقد كانت على حق حين ربطته بنبلاء العصور القديمة.. فهو مماثل لهم.. فاتح عصري يشق طريقه الخاص في عالم الكومبيوتر والانترنيت.

قاومت رغبتها في التثاؤب وسألته: «وهل تبقى صاحياً طوال الليل؟».

ـ ليس دائماً.

ابتسم وهي تقف، لكن عينيه بقيتا مقنعتين، بالرغم من السحر الرجولي الذي تفجر منه بقوة. وأكمل: «تتطور الأحداث في الطرف الآخر من العالم بسرعة، وتحتاج إلى اهتمامي الشخصي. سأراك في غرفة الجلوس حين تصبحين مستعدة».

بضع ساعات كانت تفصلهما عن وقت المغيب... ارتدت السماء حلّة رمادية تبعث الكآبة في النفس... ولطالما بعث النوم خلال النهار الخمول في جسم لانث، لكن هذا الإحساس اختلط اليوم مع شعورها بالغباء لمجيئها إلى هنا.. وفكرت بتجهم، وهي تغسل وجهها، وتمشط شعرها وتنتعل صندالها، أنها لو قابلت أليكس كونسدين مجدداً، فمعنى ذلك أنها تتجه بملء إرادتها نحو الخطر، ولعل أبرز الدلائل هو الألم الذي اعتصر قلبها حين فكرت في أنها لن تراه مجدداً!

لن تراه مجدداً.. وستلتزم هذه المرة بقرارها.

وفي غرفة الجلوس، قالت له: «إذا كنت مشغولاً، سيوصلني مارك إذا ما عاد».

قال: «لقد عاد.. لكن أمي كانت تقول لي دائماً إذا خرجت مع فتاة.. عليك أن تعيدها إلى منزلها».

ـ أمك صاحبة مبادىء نبيلة ورفيعة.

زم شفتيه، وعكست قسمات وجهه خشونة غريبة للحظات، ثم قال: «رفيعة جداً».

عادا إلى منزلها بصمت، ومرا بالنباتات الخضراء الفتية، حيث كانت زيزان الحصاد تغني قصائدها للصيف بصوت حاد.

قال أليكس وهو يتركها عند باب دارها: «انتبهي لنفسك».

فاستدارت لانث تنظر إليه، وأجابت: «وأنت أيضاً».

وجعلت كلماتها تبدو كأنها وداع.

وفهم مغزاها.. فأشعل الرفض ناراً في عينيه، وبدت القسوة على وجهه

لثوانٍ. وقفت دون حراك، وكانت صيحات الأولاد تتلاشى، مع الترقب الحار وهما ينظران إلى بعضهما.

التوى فمه.. وبحركة سريعة أمسك بها ومال ليعانقها.. بدا عناقه حاراً وكأنه يدمغها. وتجاوبت معه، بشوق... واستسلمت لمشاعرها، تقبل بما يعطيه، وتأخذ ما يمكنها أخذه من هذا الموقف الخطير.

أخيراً، رفع رأسه.. بدت عيناه مضطربتين، وفمه مشدوداً، فارتجفت لانث.

قال بصوت أجش: «يجب أن أعتذر، لكنني لن أفعل.. هذا ما أردت أن أفعله منذ رأيتك للمرة الاولى.. فوجهك كوجه حورية، وأنا أريدك.. لكن هذا لن يحدث».

وبالرغم من أنه لم يكن يطرح سؤالاً، إلا أنها هزت رأسها، وقالت بهدوء: «لا..».

بالطبع لن يحدث هذا.. ليس لديها ما تقدمه لرجل كأليكس كونسيدين.. كانت مجرد شخصية تلفزيونية لوقت قصير، وهي عالمة أحياء تحمل ندبة بشعة و تعاني من عرج دائم، ولا يمكن مقارنتها بالنساء المتألقات الفاتنات اللواتي اعتاد أن يعاشرهن.

قال بخشونة: «أنت تميلين إليّ أيضاً».

قالت: «الميل لا يصف ما أشعر به، بطريقة ما».

وامتلأ صوتها بالمرارة والسخرية وهي تكمل:

ـ توق شديد؟ هاجس؟ مهما كان شعوري فهو لا يعجبني، ولن أفعل شيئاً حياله، لأنه يرعبني. أعرف أن لا مستقبل لنا معاً.. لكن إذا أردت إرضاء غرورك، أقول لك، نعم أنا أميل إليك.

ضحك دون مرح.. وأذهلها حين أمسك بيدها.. وبحركة لبقة بقدر ما هي قديمة، قبّل يدها.

انتزعت يدها مدهوشة وضغطتها على صدرها. وراقب أليكس تسارع تنفسها الجلي تحت قماش قميصها الرقيق، قبل أن يرفع نظره ليأسرها

بابتسامة سوداوية لا مرح فيها.

ـ هل تؤمنين بتقمص الأرواح يا لانث؟

قالت دون تفكير: «لا».

ـ ولا أنا.. مع ذلك، حين رأيتك للمرة الاولى تساءلت عما إذا كنا قد تصادفنا من قبل.. لأن وجهك الجميل، وصوتك المبحوح الساحر، وشعرك الرائع، كل ذلك مألوف لدي كملامحي تماماً.

فقالت بحدة: «لا بد أنك شاهدت أحد أفلامي الوثائقية».

لكنها لاحظت كيف تشنجت أساريره بشيء من الألم، ولأول مرة عجز عن السيطرة على نفسه، فتعاطفت كل خلية من جسمها معه.

قطبّ حاجبيه السوداوين، وقال بصوت مشدود خشن:

ـ لا.. هناك قرارات يجب أن أتخذها.. قرارات لا تحتمل الانتظار.. وأنت لست امرأة لعلاقة عابرة.

صدمه الإحباط بقوة، وعكست قسماته غضباً عارماً، إلى أن كبح جماح مشاعره وأنهى كلامه:

ـ آمل أن نلتقي مرة أخرى في حياة أخرى، لننهي ما بدأناه هنا في زمان غير ملائم.

بقيت مسمّرة.. دون دفاع، أسيرة الشوق الواضح في عينيه الملتهبتين.

وأضاف بلهجة رسمية غريبة: «أتمنى لك السعادة».

ثم استدار مبتعداً.

أجبرت لانث نفسها على أن تفتح الباب، وتدخل، وتقفله خلفها.. وقفت واستندت بظهرها على الباب، إلى أن سمعت سيارته تهدر مبتعدة.

لماذا لم يحاول إقناعها بعلاقة عابرة؟

ما أن تكونت هذه الفكرة في ذهنها حتى نبذتها.. فلو كان من هذا النوع، لما وقعت في شرك هذه الجاذبية الجامحة، وقد شدتها إليه الاستقامة التي أحست بها في داخله.

قالت بصوت مرتفع، وكلماتها تسخر من ثقتها بنفسها:

ـ ومن تخدعين؟ لقد جذبتك استقامته فعلاً. لكن لا تنسي وجهه، وجسمه، والقوة والسحر في شخصيته..

ما هي القرارات التي سيضطر لاتخاذها؟ يحاول أن يبعدها عنه بلطف، لأنها ليست المرأة المناسبة لرجل مثله، وهو يدرك هذا بالرغم من ميله إليها؟ وسألت نفسها بغضب:

ـ أوه.. لماذا لا تعودين الى الإشفاق على نفسك؟

حاربت لسنوات قلة ثقتها بنفسها، وغالباً ما كانت تكسب المعركة.. كانت تعرف سبب عدم ثقتها بنفسها.. فمنذ اكتشفت أن والدها الوسيم الباسم تركها هي وأمها، اقتنعت بأنها لم تكن ابنة جيدة له، ولن تستوقف أي رجل آخر.

لكن المنطق والنضوج جعلاها تدرك خطأها ولم يعد ذلك الإحساس بالنقص يراودها إلا نادراً. وكانت تتساءل أحياناً عما إذا كانت قد وافقت على تصوير المسلسل الوثائقي، لتثبت قدرتها لأبيها..

أمضت وقتاً طويلاً في الحمام، لتحاول أن تزيل الغبار عنها. ثم خرجت تسير على الشاطىء، وراحت تهز رأسها تحية للمارة، وتتحدث الى الأولاد.

وأجبرت نفسها مجدداً على دخول الماء. داهمها الذعر، لكنها استطاعت التعامل معه هذه المرة.. كانت صورة الأنياب لا تزال تحاصر مشاعرها، لكن الندم الحلو المرّ الذي تملكها، تغلب على الرعب كله.

أخيراً، عادت إلى المنزل، وحضرت القهوة، ثم توجهت الى الشرفة الخلفية لتشربها والشمس تغيب.

وبالرغم من أنها أجبرت نفسها على قراءة كتاب كانت تتشوق لقراءته منذ أشهر، وشاهدت التلفزيون إلى أن تعبت عيناها، إلا أن أحاسيسها المتألمة قضت مضجعها، وحرمتها من النوم، فاستلقت في السرير، وخططت لمستقبلها، في عالم ليس فيه أليكس كونسيدين

لقد نجحت من قبل، وتستطيع أن تفعل ذلك مجدداً.. كل ما تحتاجه

هو قوة الإرادة والسيطرة على النفس، والمثابرة.. وهي تملك كل هذه المزايا.. وستصل.. يجب أن تصل.

انبلج الفجر على سماء ملبدة بغيوم مرتفعة، مما يدل على أن الطقس سيتبدّل.. ولكي تبعد عن ذهنها ذاك الرجل، الذي توقع أن يقضي ليلته في العمل مع الطرف الآخر من العالم، فتحت لانث الراديو وهي تحضر فطورها، لتصغي إلى النشرة الجوية.

حين انتهت النشرة أطفأت الراديو مقطبة.. كانت النشرة حذرة، لكن إذا ما تابع الإعصار «دارا» مساره الحالي، ونشط قليلاً فسيصل الى نورتلاند في اليوم التالي، وقد يسبب بعض المتاعب.

خرجت لانث تتفحص السماء مجدداً، وقطعة التوست في يدها. كان سطح البحيرة يتماوج بفعل الريح والمياه تعكس لون السماء.

لا داعي للقلق.. فقد تحمّل «الباتش» الأعاصير لأكثر من خمسين سنة.. ستكون آمنة هنا أكثر من أي مكان آخر.. وفضلاً عن هذا، ليس لديها مكان آخر تقصده.. فقد تخلّت عن شقتها في خليج الجزر، ووضعت مفروشاتها في مستودع حين انضمت إلى فريق «سي روفر». ومنذ حادثها المشؤوم، أمضت معظم وقتها في المستشفى، لتنتقل رغماً عنها إلى منزل والدها، بين عملية جراحية وأخرى.

لم تسعد بذلك قط.. إذ لم يكن هو وزوجته لطيفين معها، كما لم يرحبا بها، وشكلت حملاً ثقيلاً عليهما.. وحين عرض عليها والدا تيريسيا هذا الباتش لتقضي فترة النقاهة فيه، قبلت العرض بسرور.

هل علم أليكس أن العاصفة متوجهة إلى هنا؟ ربما عليها أن تتصل به وتبلغه. لكنها لا تعرف رقم هاتفه. يمكنها بالطبع أن تسأل، لكنها لن تفعل.. فما تفعله هو محاولة البحث عن عذر جيد لتتصل به مجدداً.

لكنه قال لها إنه يستمع دائماً للنشرة الجوية.

على أي حال، لديها أعمال تقوم بها فعليها أن تتفحص المرآب أولاً.. لقد جمع فيه والد تريسيا اشياء مختلفة.. وعثرت لانث فيه على موقدة قديمة

الطراز كما وجدت بعض الوقود.

حملتها إلى المطبخ ونظفتها، ثم أشعلتها لتتأكد من قدرتها على إشعالها، وراحت تنظر برضى إلى اللهب المتصاعد... وهكذا، إذا ما انقطع التيار الكهربائي ستتمكن من الطهي ومن صنع الشاي.

أطفأت الموقدة، ثم خرجت من المنزل وتوجهت بسيارتها إلى المتجر لتشتري من الطعام ما يكفيها ليومين، فسألتها المرأة من وراء الصندوق بابتسامة سريعة: «ألن ترحلي؟».

ـ لا.. أعتقد أن الأحوال الجوية ستدفع معظم الناس الى العودة إلى ديارهم.

عادت إلى «الباتش» وأفرغت مشترياتها. بعدها قررت غسل ثيابها.. وبعد أن علقت الشراشف والمناشف والثياب في الخارج، نظفت المنزل ورتبت السرير ومسحت الغبار عن الأثاث.

حان وقت الغداء، وكان الطقس يزداد سوءاً. إذ هبت ريح شرقية، ساخنة تحمل معها الرطوبة، وحوّلت سطح البحيرة إلى أمواج متكسرة.. وبينما كانت لانث تحضر طعامها، استمعت إلى النشرة الجوية، وقطبت حين سمعت أن سرعة الإعصار تتزايد.. وأنه إذا ما بقي على مساره فسيضرب نورتلاند حتماً في وقت ما من الصباح التالي.

وقفت هناك للحظات، تتأمل السماء وغيومهاالتي ارتدت حلّة العاصفة القادمة. ثم عادت إلى الشرفة، لتراقب السابحين القلائل، وتصغي الى الراديو الموضوع الى جانبها باهتمام متزايد.

بدت النشرات الجوية حذرة.. فأخذت تنذر الجميع بالابتعاد عن طريق الإعصار، أو باتخاذ الحيطة. وتقيّد الناس بالارشادات.. وراقبت لانث قوافل المقطورات والسيارات، وهي تنسحب من المخيم.

حاولت لانث أن تنظر إلى الجانب المشرق للأمر وهي تجمع الغسيل عن الحبال.. وفكرت في أنها لن تقلق على الزجاج في الباتش فنوافذه الصغيرة ستتحمّل ريح الإعصار وستقيه شجرة السرو من الريح.

كانت تطوي ملابسها حين وصل جارها، وهو رجل ضخم، ذو شعر أصهب يتناقض بشكل واضح ولون بشرته. كان يحمل رقم هاتف في أوكلاند، ورجاء.

ـ إذا حصل أي شيء.. أيمكنك أن تتصلي بنا؟

ـ طبعاً سأفعل.. هل ستغادرون الآن؟

ـ أجل.. فزوجتي تريد أن تكون في المنزل حين يضربنا الإعصار. أعتقد إنها لا تشعر بالأمان في «الباتش».

واستدار ليذهب، ثم توقف وعاد إليها:

ـ اسمعي.. انتبهي لشجرة السرو، فمنذ سنتين انكسر غصن كبير منها في عاصفة شتوية.

لاحقت لانث نظراته.. كانت الشجرة ضخمة جداً، وأغصانها المتفرعة تغطي معظم المرج الأمامي.

تابع: «إذا اشتدت الريح بما يكفي لتقطع غصناً منها.. فلا بد أن تحمله وترميه فوق الباتش. لهذا، إذا أصبحت الريح قوية، لا تترددي.. اذهبي إلى منزلنا، هاك».

فتش في جيبه وأعطاها مفتاحاً يتدلى منه خيط صيد أخضر.

ـ هذا مفتاح الباب الخلفي.

ـ لا أستطيع أخذ مفتاحك..

ـ معنا مفتاح آخر.. خذي هذا الآن.. فقد تحتاجين إليه.. سأشعر بارتياح أكبر لو أخذته.

وبما أنه بدا منفعلاً ومتلهفاً قبلت المفتاح.. وهز رأسه مقطباً وكرر تحذيره لها، ثم غادر، واستدار ليلوح لها من على الطريق حيث ركن سيارته التي تجر مركباً في أعقابها.

بعد رحيله، دارت لانث حول الشجرة لتتفقد الغصن المكسور.. كان في الجانب الآخر من الباتش. ولم تلاحظ أي أثر للتآكل في جذعها، لكن معدتها تقلصت قليلاً وهي تسير على الشرفة.

في وقت متأخر من بعد الظهر، هطل المطر بشكل متفرق في البداية، ثم انصب زخات قوية تدفعه الريح العاتية.. وما هي إلا عشرون دقيقة حتى سمعت قرعاً على الباب.

فتحته لتجد مارك أمامها.. سرت خيبة الأمل في نفسها كصدمة كهربائية، وقالت: «مرحباً».

ـ مرحباً.. أرسلني السيد كونسيدين لأتأكد من أنك على ما يرام.

وأخذ ينظر حوله، ويتأمل ما استطاع رؤيته من الباتش.

ـ أنا بخير.. شكراً لك.

إذن، لم يغادر أليكس.. وتراجعت إلى الوراء لتشير إلى الداخل:

ـ كل شيء على ما يرام.

نظر مارك حوله: «يبدو لي هذا المكان غير قادر على تحمل عاصفة.. فما بالك بإعصار».

ـ لكننا محميون بالتلال.. قل للسيد كونسيدين ألا يقلق.. سيكون بأمان تام.

كانت ملاحظة خبيثة. لكن، بدا أن مارك لم يفهمها.. فقد قال:

ـ إنه ليس قلقاً على نفسه.. فمنزله مبني ليبقى حتى فناء العالم.

كررت لانث ما كانت تردده لنفسها طوال ذلك اليوم:

ـ إن عمر هذا «الباتش» أكثر من خمسين سنة.. ويلزمه أكثر من إعصار لينزعه من مكانه.

استدار لينظر إلى شجرة السرو الضخمة المتشعبة الأغصان، التي بدأت تهتز، ثم سألها: «وكم عمر هذه؟».

هزت كتفيها: «ليس لدي أدنى فكرة. لكن مضى على وجودها زمن طويل، ونجت من أعاصير أخرى.. أنقل شكري الى السيد كونسيدين على اهتمامه.. وقل له ألا يقلق.. فسأكون بخير».

رفع مارك كتفيه قليلاً وقال: «حسناً جداً».

وعاد إلى الرانج روفر.

أقفلت لانث الباب.. لقد قام أليكس بواجبه كأيّ رجل محترم.. وبالطريقة الوحيدة المعقولة.

وراحت تقنع نفسها بهذا مع ازدياد عويل الريح حول المنزل، وتقلّب مياه البحيرة وتموجها تحت دفق المطر الغزير.. لا تريد أن تراه ثانية، بل إنها لا تحتمل رؤيته.. لقد تودّعا، ويجب أن تنتهي الأمور عند هذا الحدّ.. لكن عدم مجيئه بنفسه آلمها.

تزامن قرع حاد على الباب مع وميض قوي واحتراق المصباح الكهربائي.

تمتمت: «اللعنة!».

كان لديها مصباح يعمل على الغاز، وشموع وثقاب.. لكن انقطاع التيار الكهربائي في هذه المرحلة المبكرة، نذير سوء.

فتحت الباب، وكان أليكس يقف هناك، والمطر يبلل شعره الأسود، وعيناه الشاحبتان ضيقتان خطيرتان.

قال دون مقدمات، قبل أن يتيح لها فرصة الكلام:

ـ من الأفضل أن تحزمي بعض الثياب.. لأنني أوافق مارك الرأي. فتلك الشجرة كبيرة جداً وقريبة من المنزل بشكل خطير.. ويكفي أن ينكسر غصن واحد ليسحقك.. لهذا أحضري معك ما قد يلزمك خلال يومين... فستبقين معي.

قالت بحزم: «لا أستطيع».

ـ ولماذا؟

ـ لقد وعدت جاري بأن أراقب منزله.. وإذا أقلقتني الشجرة، يمكنني الذهاب إلى هناك.. فلدي المفتاح.

قطب حاجبيه وقال ساخراً: «لا تكوني حمقاء.. حين تبدأ الأغصان بالسقوط لن تتمكني من الخروج».

قالت بعناد: «قلت للسيد روبرتسون..».

قاطعها بقسوة: «سأعيدك حين تنتهي العاصفة».

أخذت نفساً عميقاً، وجمعت كامل قواها، لتقول: «أليكس...».

فقال بحدة مدروسة: «أتمنى ألا تشعري بأني قد أطالبك بشيء».

اقشعر بدنها من وقع كلماته بل من اللهجة التي اعتمدها.. بدا وكأنه مشمئز. وحين رفعت ناظريها الى عينيه، كادت تصرخ ألماً للاشمئزاز الذي لاحظته في أعماقهما الباردة.

لقد قرأ أفكارها الخفية السرية، ولا داعي لأن يقول لها رأيه.

ردت بصوت صارخ: «لا! بالطبع لا أشعر هكذا».

وهبّت ريح مفاجئة هزت نوافذ «الباتش» وتعالى صوت تحطم، دفعهما إلى الاستدارة بعنف ليريا غصناً من شجرة السرو ينكسر ويقع قرب الباتش.. شهقت لانث مصدومة حين حط الغصن على العشب، على بعد خطوات من المنزل.

عندها، قال أليكس بخشونة:

ـ حسناً.. انتهى الجدل.. أحضري بعض الملابس أو سأحضرها لك.. ستأتين معي.

***

٥ ـ الإعصار

راقبت لانث بفم جاف، أغصان الشجرة المتماوجة في السماء الملبدة، التي عادت واستقرت بعد مرور هبة الريح.

قال أليكس: «ما هذه إلا المقدمة.. سوف تتحول الريح إلى عاصفة بكل ما للكلمة من معنى.. يجب أن نغادر المكان قبل ذلك.. هيا يا لانث، تحركي!».

استسلمت في مواجهة إرادته الصلبة التي لا تلين، فدخلت الى غرفة نومها ووضعت ما تحتاجه في كيس.

حين عادت إلى غرفة الجلوس، كان يقفل باب البراد بعد أن وضع مشترياتها في أكياس بلاستيكية.. ثم سألها: «هل أنتِ جاهزة؟».

ومنحها ابتسامة مشرقة، خفق لها قلبها. فردت ببساطة: «أجل.. هل أحمل معي الموقدة؟ لدي مصباح غاز أيضاً».

ـ لا.. فلدي المعدات اللازمة.

كان الوقت لا يزال مبكراً.. فقالت لانث وهو يدير المحرك: «إن وقوعه في الخندق لم يتسبب بأضرار بالغة».

ـ لقد احتاج إلى واقٍ جديد للإطارات، هذا كل ما في الأمر.

نظرت إلى وجه أليكس النحيل. حاولت أن تخفف الاحتقان في صدرها، وفكرت في أنه الوجه الوحيد الذي لا يكشف عن مكنونات صاحبه وأفكاره.. وكأن وجهه الحسن، قناع يخفي وراءه ما في داخله بذكاء تام.. هل هو غاضب لأن إحساسه بالمسؤولية جعله يأتي ليأخذها؟

وفي منتصف الطريق، كسرت لانث الصمت، قائلة: «لعل هبة الريح تلك، هي كل شيء..».

- إعصار بهبة ريح واحدة؟ لا يبدو هذا ممكناً.

رمقته بنظرة جانبية من جديد، ولاحظت خطوط وجهه وهو يضحك.. ولم تضفِ هذه الخطوط الهدوء على القسمات التي تميّزه بوسامة رجولية.. أو على فكه وذقنه. لكنها جعلت عظامها تذوب.

ما أن وصلا إلى المنزل حتى صدمت لانث بالسكون والصمت، ونظرت حولها قبل أن تسأل: «أين مارك؟».

- أرسلته إلى منزله.

ارتفع حاجبا لانث استغراباً فقال بهدوء: «تعيش شقيقته وحدها قرب الشاطىء، وكان قلقاً عليها».

قالت: «من الصعب عليّ أن أتصوّر مارك مع عائلة».

فهز أليكس كتفيه، وأجاب: «لكل إنسان عائلة.. حتى وإن خسرها».

كان لكلامه رنة غريبة.. قاسية، وأكثر من ساخرة.. مما جعلها ترفع ناظريها إلى وجهه.. لكن صفاء عينيه لم يعكس سوى الزرقة الباردة. كيف يمكن لعينين بمثل هذه الشفافية أن تكونا غامضتين هكذا؟

قالت: «أنا خسرت عائلتي».

- وماذا حدث؟

ضرب المطر النافذة وقد دفعته ريح عاتية ثم أظلمت الغرفة.. فارتجفت لانث، وهي تقول:

- تركنا أبي وأنا في السابعة من عمري. وتزوّج مرة أخرى، فأسّس عائلة أخرى، بعد ذلك لم يعد يهتم بي أبداً.

- وهل تخلى عنك؟

لهجة الإدانة المخيفة في صوته، أوجبت رداً سريعاً منها: «لقد حرص على أن تحصل أمي على ما يكفيها من المال.. كما دفع مصاريف التحاقي

بمدرسة جيدة، ومن ثم بالجامعة. وحصلت على كل ما أريده».

فقال بهدوء: «كل شيء.. ما عدا الأب».

هزت كتفيها وردت: «هذا شائع جداً».

- وأمك؟

تقدمت لانث نحو النافذة لتنظر إلى الخارج.. لقد سلبت الغيوم ألوان البحيرة.. لكنها استطاعت أن تميز الحافة التي تفصل البحيرة عن البحر العميق.. وقالت:

- حين التحقت بالجامعة.. انتحرت.. وقالت في رسالتها الوداعية إنه لم يبقَ لديها ما تعيش من أجله، بعد أن تركتها.. وكنا قد أمضينا سنة كاملة نتشاجر بسبب رغبتي في ترك المنزل.

لم تعِ كيف تمالكت نفسها.. إلى أن احتوتها ذراعاه.. أحست بقوتهما وحرارتهما، وبعطره الفاتن، فبدأ إحساس غريب يضرب على شرايينها، ليخدّر أعصابها.

قالت، وهي تتماسك لتواجه دفئه المغري:

- أردت أن أبتعد.. لكنها تمسكّت بي.. كانت خائفة من أن تخسرني.. وأنا كنت طائشة دون تفكير.. ولم أدرك مدى حاجتها لي.. وكم كانت تحبني.

- إنه حب من نوع غريب ذاك الذي ينكر عليك حريتك.

وأحست بالارتياح بين ذراعيه.

قالت: «كان عليّ أن أفهم.. وحين أنظر إلى الماضي، أرى أنها اضطرت لحشد طاقتها العاطفية كلها لتبقى متماسكة. لقد قال أبي مرة، إنه لا يستطيع العيش معها لأنها دائمة التوتر، وغيورة. كان يبالغ، لكنها لطالما كانت متعبة ومشدودة الأعصاب».

- وبالطبع، تساءلتِ عما كان سيحدث إن بقيت معها.

اخترق صوته كيانها، فهزت رأسها على صدره، وابتلعت الكلمات التي كادت تخرج من حنجرتها..

وقال بصوت صريح:

ـ لقد عمدت إلى الابتزاز العاطفي.. وحين لم ينجح ذلك سعت لتتحمل النتائج.. فإن كانت ضعيفة إلى حد دفعها قرارك بالذهاب إلى الجامعة للانتحار، فلا بد أنك أمضيت حياتك كلها تنفذين ما تريده هي.. وتجعلين وجودك ثانوياً أمام وجودها، كي لا تتحطم.

أشاحت لانث بوجهها وقالت باكتئاب: «كان بإمكاني أن أساعدها».

ـ وكم كان عمرك؟

ـ سبعة عشر عاماً.

ـ كنت صغيرة جداً على تحمل تلك المسؤولية.. كما أنها كانت قادرة على مساعدة نفسها إذا ما أرادت ذلك.

اعترتها برودة بسبب منطقه القاسي، فتراجعت عنه، وبقيت شرايين جسمها تنبض بعنف.. لكنها سيطرت على صوتها.

ودون أن تنظر إليه، قالت:

ـ لن أعرف هذا أبداً. لكنني لا ألوم نفسي.

زمّت فمها، وهي تضيف: «لقد دفع أبي أتعاب العلاج النفسي. وقال ما قلته أنت بالضبط.. لكن، لم يكن من العدل أن أختار ما بين حياتي وحياتها».

قال وقد عادت تلك اللكنة الغريبة إلى صوته:

ـ أفهم هذا.. لكن هي التي اختارت.. ولم يكن الخيار خيارك.

قالت لانث بهدوء: «لست أدري.. فقط.. لست أدري».

حدّقت في المطر وغيّرت الموضوع: «إذا اقتصرت العاصفة على المطر، فسنكون محظوظين».

ـ لنأمل أن تبقى الريح فوق البحر.

تأملت الرمال، التي بدت بيضاء مخيفة.. وسألته:

ـ كم مرة تأتي إلى هنا في العام؟

ـ مرة في السنة على الأقل.. وأكثر إذا ما تمكنت.. لكنني لا أستطيع

ذلك في معظم الأحيان.

وقفا بصمت يراقبان المطر المنهمر وهو ينصبّ فوق سطح البحيرة، في دورة لامتناهية من التجدد والتغيير.

قضى التوتر على رباطة جأش لانث، وأحست بخطر يهددها، خطر اختلط مع ترقب غريب.

أحست بهذا الشعور حين غطست عبر الجدار الأزرق للمرة الأولى.

لم تشعر بمثل هذا الترقب الجامح الحارق من قبل.. حتى مع الرجل الذي خطفه الموت. لقد أحبت كريغ كثيراً، وحزنت عليه لسنوات، إلا أنها لم تعد تذكره بأكثر من الحنين. كان يضحك كثيراً، ويسخر من مخاوفها وقلقها لتتخلص منها، ويشع بدفء لم تستطع أن تقاومه يوماً.

لكن أليكس اقترب منها من ناحية أخرى. كان يسيطر على حيويته بإرادة من حديد، لتصبح قوة صلبة تخيفها.. حين اعتقد أنهما لن يلتقيا من جديد، عانقها بشوق وإلحاح شرس اخترق دفاعاتها.. لكن هذا العناق الأخير لم يكن شخصياً.. كان يحاول أن يواسيها.

سألها أليكس: «أترغبين في شيء تشربينه؟ يبدو لي أن ليلاً طويلاً في انتظارنا».

قالت باستسلام: «نعم.. شكراً لك».

تحرك بسرعة وثقة، وحضّر قهوة ممتازة. أدهشتها براعته في المطبخ.. فقد كان كريغ ابناً وحيداً، ومدللاً منذ صغره.

فكرت بنفاد صبر: كم يتغير الزمان.. ولقد تغيرت هي كذلك، لقد أصبحت في السادسة والعشرين من عمرها، ولم تعد في الواحدة والعشرين.. ولا يمكنها أن تعود إلى الوراء.

فتح أليكس باب خزانة المطبخ وأخرج علبة بسكويت، ثم فتح الغطاء ومدّ يده بالعلبة.

أخذت واحدة منها، وهي تقول: «يبدو وكأنه منزلي الصنع.. إنه ألذّ بسكويت تذوقته».

ـ لقد صنعها مارك.

وضحك لذهولها..

هل يقوم مارك بالطهو، أم أن أليكس قادر على تحضير وجبة طعام؟ وكبحت لانث السؤال. فهي تريد معرفة كل شيء عنه، لكنه لن يطلعها على شيء.

لماذا بحق السماء روت له قصة عائلتها؟ وتملكها الإحراج والخجل.

وفي غرفة الجلوس، قالت بصوت هادىء:

ـ تبدو غرفك مشمسة وصيفية بالرغم من سوء الطقس. لا بد أنك استخدمت مهندس ديكور بارع.

ـ بارع جداً.

شربت بعض القهوة، ورفضت قطعة بسكويت أخرى. واستندت إلى ظهر مقعدها، متجاهلة الصمت الذي طال.

قال أليكس بصوت عادي محايد: «قتل والدي وأنا في العاشرة من عمري».

أحست لانث بالصدمة.. فرفّت بعينيها قائلة: «لا بد أن هذا كان رهيباً».

ـ كان مثالي الأعلى، ومثال أمي أيضاً.. كنّا فقراء، لكن بوجوده كانت الحياة وليمة غنية فاخرة.

لكنه لا يتصرف وكأنه تربى فقيراً.. فمثل هذه الثقة وهذه الإرادة التي لا تلين، وقف عادة على من ولدوا في أحضان الثروة والسلطة.

قالت بصوت مرتفع: «هذا ميراث جيد».

وازدادت قسوة وجهه، وهو يضيف:

ـ أجل.. موت والدي دمر أمي.. وبالرغم من أنها لم تكن تملك شيئاً، إلا أنها تمكنت من بناء حياة جديدة لنا.

ـ ألا زالت حية؟

رفع رموشه الثقيلة للحظة، ثم أسدلها، وأجاب: «إنها حية ترزق».

من السخف اعتبار تحفظه الطبيعي رفضاً، فهو يحمي خصوصياته وحسب.. ولا شك أنه عرف التزلف والتملق اللذين يحيطان بأصحاب المال والسلطة. على أي حال، لا يمكنه أن يعرف ما إذا كانت ستتوجه مباشرة إلى إحدى الصحف لتكشف التفاصيل التي أسرّ بها إليها، وخبر لقاءاتهما القليلة فيقرأها كل متلهف.

مع ذلك، تألمت.. يجب أن يدرك أنها مختلفة.. وعرفت أن الفكرة غير منطقية حتى وهي تتكون في رأسها.

وبعد نظرة سريعة إلى ساعته، قال: «هل تمانعين إن شغّلت جهاز التلفزيون؟».

ـ لا.. بالطبع لا أمانع.

كان الجهاز موضوعاً خلف أبواب خزانة عصرية، وأداره أليكس على محطة إخبارية، وتراجع ليجلس. وفي صمت شاهدا تقاريراً عن الإعصار، وكلها تنذر بالسوء.

أطفأ أليكس الجهاز وقال: «يبدو الأمر مؤكداً.. حتى وإن تراجع في آخر لحظة سننال نصيبنا من الريح والمطر».

وجدت نفسها تبتسم وهي تجيب:

ـ يبدو ذلك.. لقد كنت متسلطاً جداً.. لكنني سعيدة لوجودي هنا. ما كنت لأحب البقاء وحيدة.

ـ يدهشني أن والدك لم يصرّ على عودتك إلى أوكلاند.

جلست لانث مستقيمة قليلاً، وقالت:

ـ لم يعد لوالدي أي سلطة عليّ منذ زمن طويل.. هل لك أن تريني أين سأنام.. أرجوك؟ سأعلق ثيابي، وربما أستطيع مساعدتك في تحضير العشاء بعد ذلك؟

قال، وهو يقف على قدميه بحركة رشيقة: «سأكون ممتناً لأي عون أحصل عليه.. أنا طباخ مقبول، لكن قدراتي محدودة في هذا المجال».

سألت وهي تتوجه إلى الغرفة التي نامت فيها من قبل:

ـ لماذا لم ينقطع التيار الكهربائي كما في البحيرات الأخرى؟

ـ إن مصدر التيار هنا هو الشمال . . والآن، هل لديك كل ما تريدين؟

ـ أجل . . شكراً لك.

حين عادت إلى الغرفة ثانية، جلسا يشاهدان الأخبار بصمت . . . وعرض التلفزيون صوراً للإعصار . . ودعا أهل نورتلاند إلى توخي الحذر، وإلى تدعيم الأبواب والنوافذ، والبقاء داخل المنازل.

وتبع التقرير برنامج حول الأسرة المالكة، فالتقطت لانث مجلة وبدأت تتصفحها بتكاسل.

سألها أليكس: «هل يضجرك التلفزيون؟ هل أطفئه؟».

ـ أوه . . لا . . ليس إذا كنت تريد مشاهدته.

ـ أرغب في رؤية الأخبار العالمية.

ـ أجل . . بالطبع.

قال بصوت متحفظ: «أنت لست من أنصار الملكية . . أليس كذلك؟».

ـ بل أشعر بالأسى عليهم . . أي نوع من الحياة لديهم؟

رفع حاجبيه وأضاف: «إنهم يعيشون حياة النجوم والممثلين . . وقد اخترت العمل في التلفزيون وأنت تدركين كما أفترض، أنك ستكونين هدفاً للإعلام».

ـ لم يخطر هذا ببالي، حين اخترت أن أقوم بهذا العمل. كما يمكن المحافظة على الحياة الخاصة إذا ما رغب المرء بذلك . . بينما تولد الأسر المالكة تحت الأضواء . . وبقدر ما تكره ذلك، لا خيار لديها.

هز كتفيه، وقال: «أن يولد المرء في الأسرة المالكة، يسهل عليه الأمور».

هزت كتفيها بدورها، وصرحت:

ـ أنا معجبة بالجيل الجديد في الأسرة المالكة، لما يقوم به من عمل . . لكن الأمر أشبه بالعبودية بالنسبة لي.

قال وعيناه باردتان ضبابيتان: «إنها كلمات قوية».

ردت باعتدال: «لقد دفع والدي تكاليف تعليمي في مدرسة خاصة، وكانت إحدى التلميذات من عائلة بارزة في بلد آسيوي. وفي آخر سنة لها، وقعت في حب صديق أخيها، الذي كان في الجامعة . . وخططا للهرب معاً. كانت تعرف أنه لن يسمح لها بالزواج من الرجل الذي أحبته . . لأنه لم يكن مناسباً».

ولم يقل شيئاً حين صمتت . . فتابعت:

ـ اكتشف أخوها أمرها، وأعلم والده، فأعادها إلى ديارها قبل أن تتمكن من الهرب . . وخلال ستة أسابيع زوّجها من رجل آخر، أكبر منها سناً، لكنه مناسب جداً، بحسب مقاييسه . . التقيت بها بعد حوالى ثلاث سنوات . . فوجدتها تعاني من أزمة نفسية . . أوه . . كانت حية ترزق . . لكني لم أرَ مثل هذا البؤس المروع في عيني إنسان.

ـ وأنت تلومين والديها على هذا؟

أحست بالحرج لغضبها، فقالت:

ـ لا يتعلق الأمر بأبويها فقط . . بل بالأسرة كلها . . وأنا لا ألومهم . . بل ألوم النظام الذي يجعل الزواج أكثر أهمية من سعادة الإنسان.

ـ أنت تتحدثين عن الصراع ما بين الثقافة العائلية المتأصلة والثقافة الفردية . . ولكليهما حسناته وسيئاته.

قالت: «منذ مئة سنة، كان من الممكن أن تتغاضى المرأة عن احتياجاتها، وتتزوج رجلاً يتطابق مع المواصفات التي تفرضها عائلتها . . لكن هذا مستحيل في أيامنا هذه».

قال: «في المواقف كلها هناك الخاسر والرابح . . وبطريقة ما، كانت صديقتك مثل أمك . . كان بإمكانها أن تختار حياتها».

ـ ربما هذا صحيح . . لكن من الصعب أن تختار حين تدرك بالضبط . . أنك لا شيء . . مجرد دمية يستخدمها والداك من أجل مصلحتهما.

وضربت المنزل رياح عاتية، لتهدأ على الفور تقريباً . . لكن المطر ازداد

حدة..

لمس أليكس جهاز التحكم، وارتفع صوت المذيع: «هناك على الأقل ثلاث وفيات.. ويعتقد أن من سحب إلى داخل الثكنات العسكرية، حرم من الرعاية الطبية. وبما أن أكثر الجنود لا يرغبون في إطلاق النار على مواطنيهم، لم يرتفع عدد الوفيات أكثر.. على أي حال، يستبعد أن تستسلم الطغمة الحاكمة للرأي العام، وتتخلى عن الحكم بهدوء.. وبما أن لا أثر للأمير المفقود.. من المتوقع أن يراق المزيد من الدماء».

أطفأ أليكس جهاز التلفزيون ليغمر الغرفة صوت المطر المنهمر دون انقطاع.

قالت لانث:

ـ أشعر بالأسى حيال «الاليريين».. لقد مرت بهم أوقات صعبة جداً.. لماذا يتمسك معظم الناس بالسلطة؟

رد أليكس بصوت كئيب: «العلم عند الله وحده».

قالت بغضب: «لا يبدو أن هناك الكثير للتمسك به بحق السماء! بلد صغير في الادرياتيكي، بقايا صغيرة من الامبراطورية البيزنطية.. لما لا تهرب تلك العصبة الحاكمة بالأموال التي سرقتها من الفلاحين وتعطيهم ما يريدون؟».

قسّت السخرية الباردة صوته: «وهل تعرفين ماذا يريدون؟».

ـ الديموقراطية كما أعتقد.

وجاءت ابتسامته خالية من المرح: «بل أكثر من هذا بكثير، يريدون عودة أميرهم».

ـ أميرهم؟ أوه.. تعني الأمير المفقود؟ إنها مجرد أسطورة.

استند إلى ظهر مقعده الكبير، ونظر أمامه مباشرة بعينين نصف مغمضتين.. فانعكس جانب وجهه بوضوح صارخ على الجدار الشاحب اللون: «يبدو أنهم لا يعتقدون ذلك».

ـ أوليس ميتاً؟

ـ بالتأكيد تقريباً.. لكن حين يحكم أمير بلداً ما لألف سنة، أعتقد أن من الصعب التخلي عن هذه العادة.

وكان صوته رتيباً دون مشاعر.

كافحت لانث لكبت فضولها، وقالت بصوت سوي: «يبدو أنك تعرف الكثير عن هذا المكان المغمور».

ـ لدي مصالح هناك.

ظنت للحظة أنه سيترك الأمر عند هذا الحد، لكنه أكمل دون اكتراث:

ـ لعائلتي جانب أليري.. وكلهم أموات الآن.

سألته لانث وهي تختار كلماتها بحذر: «كيف استطاع الأمراء الحفاظ على إمارتهم سالمة عبر القرون؟».

ـ البلد أساساً، سلسلة من الجبال فيها واد مركزي ومنفذ صغير على البحر.. وليس فيها معادن، وأهلها مشهورون ببأسهم.

ـ إذن، لا تستحق القتال من أجلها.

جعدت ابتسامة خده.. وأدار رأسه نحوها وقال: «لقد فهمت».

ـ حسناً.. تُركوا وشأنهم مع أمرائهم لألف سنة، فكيف خسروا أميرهم؟

ـ اختفى حين استولى الشيوعيون على الحكم.

تنهدت: «أوه.. أعتقد أنهم تخلصوا منه.. يا للرجل المسكين».

ارتفعت كتفاه العريضتان، وهو يقول: «لا أحد يعرف».

سألته باهتمام غامض: «هل كان له عائلة؟».

ـ كان متزوجاً.. ويصر الكثيرون من أبناء أليريا على أنه وزوجته تمكنا من الهرب.. وحين انهارت الشيوعية، جرى عندهم ما يفترض أن يكون انتخاباً ديموقراطياً. لكن اولائك الذين تم انتخابهم كانوا من الطينة ذاتها التي تحدر منها الزعماء القدامى.. والشعب اكتفى منهم. ويبدو أنهم يعتقدون أنهم لو تظاهروا طويلاً سيعود أميرهم، وينقذهم.

ـ يبدو هذا كلاماً رومانسياً لا يصدق.. لكن لو أنه نجا، ولا زال في

مكان ما.. فقد يقول «شكراً.. لا شكراً» ويتابع حياته العادية.

التوى فمه وقال: «وهل هذا ما كنت لتفعلينه لو كنت مكانه؟».

ردت بحرارة: «أوه.. أجل.. بكل تأكيد».

ـ حتى وإن كان هؤلاء الناس يعتمدون عليه لينقذهم؟

تطلعت إلى ألسنة النار المتأججة وقالت:

ـ لا أفهم كيف يمكن لمن اعتاد على الحياة العادية أن يعود إلى هذا النوع من الحياة.

ـ حتى ولو كان من مسؤوليته أن يعود؟

قالت: «إحساسك بالمسؤولية عظيم، أنا أشعر بالأسف من أجلهم.. لكن أميراً لن ينقذهم.. المساكين!».

وراحا يتحدثان في مواضيع مختلفة، ومع زحف الظلمة إلى الغرفة، تكلما وتكلما.

كان أليكس ذكياً للغاية.. لكن، يجب أن يكون ذكياً.. وإلا لما أصبح من نوابغ عالم الكمبيوتر وعالم الأعمال.. كما تبيّن لها أنه ذو نظرة ثاقبة، وصاحب اهتمامات متنوعة، وآراء فريدة، حول مواضيع شتى.

وبعد حين، وقف على قدميه، وأضاء المصباح.. بدا بسيطاً في الغرفة المليئة بالظلال.. صلب، رشيق، ومسيطر.. وأضاء مصباحاً آخر.. فحدد نوره معالم وجهه بهالة ذهبية.

كان يبدو متمدناً جداً.. وأحست لانث بجفاف في فمها.. كانت ثيابه عادية، لكنها لفتت نظرها.. فقد بدا وكأنه خارج من صفحات مجلة أزياء رجالية.. أما قسمات وجهه فقسمات قرصان.. تبعث الرهبة في النفس وتعكس قوة شخصيته.

إنها تعرف القليل القليل عنه.. لقد تربّى في أوستراليا قبل أن يرتفع نجمه في عالم الأعمال.. ولم يخطُ خطوة خاطئة واحدة منذ أسس امبراطوريته.

قال: «لقد حان الوقت لتحضير العشاء.. ألا زال عرض المساعدة

قائماً؟».

كانت الوجبة ممتازة، حساء وطبق لوبياء فضلاً عن التوست والجبن الأزرق، وسمك السلمون مع «الكوسكوس».. وعلّمت لانث أليكس كيفية تحضير الصلصة المناسبة للسمك.. كما حضر سلطة الطماطم.

سألها بعد أن ابتلعت آخر لقمة من السلمون والكوسكوس: «أترغبين في الحلوى؟ لدي فاكهة أيضاً».

تنهدت، وقالت: «يا إلهي.. لا! شكراً لك. كانت وجبة ضخمة.. وأنت كاذب».

ابتسم: «لماذا؟».

قالت: «أنا لا أدعو هذا طهواً عادياً.. لقد كانت الوجبة رائعة.. لذيذة المذاق».

ضحك بهدوء: «أنا مسرور لأنك تمتعت بالطعام.. إنها وجبة أمي المفضلة».

كانا قد تحدثا في أمور شتى خلال تناولهما الطعام. لكنهما لم يتطرقا إلى أي موضوع شخصي.. وإن قال لها إنه يحب قراءة القصص البوليسية، وكتب الرحلات، وإنه يحب الأوبرا.

واعترفت له بولعها بالسينما الفرنسية، والأفلام القديمة بالأبيض والأسود، حيث النجوم رجال مثيرون ونساء شريرات لا رحمة في قلوبهن. ودهشت حين علمت أنه شاهد بعضاً منها وأعجبته.

كان الكلام معه سهلاً.. وهما يغسلان الصحون. ومع ذلك، فقد أحست بحاجز يفصل بينهما.

رفع رأسه فجأة وابتسم.. فاعتصر ألم مجهول قلبها.. كم أنا محظوظة لأنني لم أعرفه طويلاً لأقع في حبه.. وردت على ابتسامته بأخرى ضعيفة.

ارتجفت الأنوار، وبعدها سادت عتمة الليل.

فقال أليكس في العتمة:

ـ اللعنة.. لا تهتمي.. سأحضر مشعلاً يدوياً وأشعل قنديل الغاز..

كما لدينا غاز للطهي. لهذا لن نموت جوعاً، هل ترغبين في فنجان قهوة؟

نظرت إليه وحاولت أن تبقي صوتها سوياً، وهي تجيب: «أجل.. شكراً لك».

حضرا القهوة وشرباها، بينما استمر هطول المطر على السقف الذي يقيهما غضب الطبيعة ويفصلهما عن العالم.

كانت قد وضعت فنجانها في صحنه حين دوى قرع على الباب الخلفي.. فالتفتت حولها مجفلة، وقالت: «لم بحق السماء يخرج أي إنسان في ليلة كهذه؟».

ـ سأذهب لأعرف.

وقفت على قدميها، لكنها بقيت في مكانها. وراقبت نور القنديل يبتعد في الممر القصير الذي يؤدي إلى الباب الخلفي.. ازدادت حدة صوت المطر، مما يعني أن الباب قد انفتح.. وسمعت شهقة مكبوتة.. ثم عاد الضوء مع عودة أليكس برفقة امرأة نحيلة في أواخر الأربعين من عمرها.. كان شعرها وبشرتها يلمعان من الرطوبة، ودخلت ونظرت حولها، كما لو أنها تبحث عن شخص آخر.

قال أليكس آمراً: «أحضري فنجان القهوة للسيدة...؟».

ردت المرأة عبر أسنانها المصطكة: «شاندون.. لكن، ليس لدي الوقت.. أليس مارك هنا؟».

ـ لا.

أخذت المرأة نفساً متقطعاً، وقالت: «ظننته هنا».

وصمتت تنظر إلى أليكس بحيرة.. وكأن ما دفعها إلى باب داره قد تبخر فجأة، فاستيقظت من حلم.

سألها أليكس بلطف: «لماذا تريدين مارك؟».

وحثها لتجلس بينما صبت لها لانث فنجان قهوة.

قالت المرأة: «خرج زوجي لينقل بعض الماشية».

ونظرت إلى الفنجان وكأنها تنظر إلى شيء غريب. وبدا أنها تحاول

استجماع أفكارها، بالرغم من القشعريرة التي كانت تهزّ جسمها.

ـ لقد نقلها بالأمس إلى مناطق مرتفعة، لكنه عاد اليوم إلى دراغاڤيل.. أنا ممرضة مسؤولة في المستشفى، وحفيدي هناك مصاب بالتهاب السحايا.. لكنه يتحسن، واليوم عيد ميلاده.. إنه في الثالثة من عمره فقط...

وتلاشى صوتها.. فقال أليكس بهدوء: «إذن، نقل زوجك المواشي».

ركزت المرأة على وجهه، وردت بهدوء:

ـ أجل.. لقد أمضيت بعض الوقت مع جوي، حفيدي. ولم أعد إلا بعد السادسة.. وكان روب قد ترك لي رسالة على الطاولة.. لقد اقتحمت العجول الصغيرة السياج وتوجهت إلى المرعى الكبير، قرب النهر.. فذهب إلى هناك ليعيدها ويبعدها عن النهر.

أدنت لانث فنجان القهوة من شفتي المرأة، فأطاعتها وشربت منه.

انتظر أليكس حتى انتهت وسألها: «هل ذكر الوقت في رسالته؟».

نظرت إلى ساعتها، وأجابت:

ـ أوه.. أجل. منذ حوالى ثلاث ساعات. حاولت أن ألحق به، لكن النهر ارتفع والجسر اختفى. ولم أره أو أرى الماشية.. نحن نعرف مارك جيداً.. ولطالما تساعدا.. لهذا جئت إلى هنا.

صمتت فجأة وعضت على شفتها.

حثتها لانث على شرب المزيد من القهوة، في حين سألها أليكس: «هل اتصلت بأحد آخر؟».

ـ خطوط الهاتف مقطوعة.. على أي حال، لن يستطيع أحد الوصول إلينا، لأن الطريق انهارت قرب بوابة أرضك تماماً.. كما انهارت الحافة، واستطعت أن أرى الصخور والوحول تغمر الطريق كلها.

هز أليكس رأسه، وقال: «اشربي القهوة لأرى إذا كان بإمكاننا طلب النجدة عبر الهاتف الخليوي».

حين عاد، وضعت السيدة شاندون فنجان القهوة الذي كاد يفرغ من يدها، وسألته: «هل يمكن لأحد أن يأتي؟».

ـ لا . . كيف وصلت إلى هنا؟

ـ في السيارة.

ـ سنعود في الرانج روڤر . . لا يمكننا أن نتوقع أي مساعدة . . حتى وإن استطاعوا إزالة التربة المنزلقة. قال عامل الهاتف إن فرق الطوارىء مشغولة كلها في إزالة الركام عن الطريق جنوبي دراغاڤيل . . كما سيرتفع المد حين يضرب الإعصار، لهذا يقومون بإخلاء الناس من المنطقة. ولا يمكن لأي طوافة أن ترتفع عن الأرض في مثل هذا الطقس.

***

٦ ـ حورية البحر العرجاء

وبعد عشر دقائق، كانوا في السيارة فوق طريق تتدفق عليه المياه كالأنهار . . وكانت الأنوار الأمامية تشق الظلام . . وتعكس زخات المطر.

سأل أليكس: «هل يقود زوجك جراراً؟».

كانت السيدة شاندون لا تزال متوترة، لكن هدوءه ساعدها، فأجابت: «لا . . لقد أخذ العربة المخصصة للمزرعة».

ـ هل لديكم جرار؟

ـ أجل.

ـ سنستخدمه إذن.

استقرت السيدة شاندون في مقعدها. وناور أليكس بالسيارة ليتجنب سيلاً جارفاً انصب من أحد المرتفعات الصخرية على الطريق . . ثم سأل: «هل أضواء الجرار جيدة؟».

قالت: «أعتقد أنها جيدة».

ـ أراهن أن له أضواء كاشفة إضافية.

قالت السيدة شاندون: «أجل . . ».

تابع أليكس: «سنأخذ الروڤر أيضاً، كيف أتوجه الآن؟».

ـ استدر هنا إلى اليسار، الجرار في السقيفة الكبيرة، والمرعى على بعد حوالى النصف ميل من مجرى النهر.

لم تندهش لانث حين أخرج أليكس الجرار من السقيفة . . فهو بالطبع قادر على قيادته. وسوّت مقعد الرانج روڤر بحيث أدنته من المقود. إنه رجل

www.elromancia.com

قادر على فعل أي شيء، ويتوقع من الآخرين أن يحذوا حذوه..

قالت المرأة إلى جانبها: «روب سباح جيد.. ومعه الكلاب».

على السيدة شاندون أن تدرك أن إجادة السباحة لن تساعد أحداً في نهر فائض، ولا الكلاب أيضاً.. لكن من الواضح أنها تحتاج إلى أي تشجيع ممكن.. لحقت لانث بالجرار الضخم الأصفر والأخضر، عبر طريق مرصوفة بالحصى تقطع المزرعة وتتجه نحو النهر.. وأخذت تصلي من أجل روب شاندون ومن أجل سائق الجرار معاً.

كانوا في منتصف الطريق حين قالت السيدة شاندون: «ها هو بوني!».

تقدم نحوهم كلب أبيض وأسود راكضاً.. فخففت لانث من سرعتها، وأنزلت السيدة شاندون زجاج النافذة وصاحت بصوت علاه صوت المطر: «فتش عن روب.. فتش عن روب!».

تردد الكلب، ثم انطلق نحو النهر، وهو يلتفت إلى الوراء وكأنه يتساءل عما إذا كانوا سيلحقون به.

قالت السيدة شاندون: «هناك بوابة في مكان ما هنا».

حين أوقفتا السيارة خلف الجرار، نزلت السيدة شاندون وركضت إلى الأمام لتدفع البوابة وتفتحها.

حدقت لانث في النهر الثائر، الذي لطالما كان خيطاً من الماء، غير مؤذٍ، يمر بين ضفتين منخفضتين.. لكنه بدا الآن خطيراً، وقد فاضت مياهه لتغمر العشب.

أخذ أليكس يحرك المصابيح الكاشفة فوق الماء.. وسرعان ما صرخت السيدة شاندون ولانث معاً: «ها هي هناك.. ها هي العربة!».

كان روب شاندون على بُعد أمتار من النهر حين انقلبت به العربة رأساً على عقب.. وركز أليكس النور على المركبة المنقلبة.. لم يكن الفيضان قد وصل إليها بعد، لكنها مسألة وقت فقط.

قال أليكس: «هناك شيء ما يتحرك».

كلب آخر، أبيض وأسود مثل بوني، خرج من تحت العربة، مطلقاً

نباحاً متواصلاً، رد عليه بوني.

شهقت السيدة شاندون: «هذا بيو».

حرك أليكس الضوء وقال بحدة وهو يثبته: «ذاك اللمعان تحته.. ما هو؟».

خفق قلب لانث: «إنه المعطف الواقي من المطر.. إنه يعكس الضوء».

كبتت السيدة شاندون شهقة بكاء، وقالت: «إنه يتحرك.. حمداً لله».

ثبت أليكس الضوء على الكومة المظلمة.. وتراجع بيو ليبقى بجانب سيده. وعبر غلالة المطر الكثيفة شاهدوا ذراعاً ترتفع بحركة ضعيفة، لكن روب شاندون لم يحاول النهوض.

سألت لانث، وهي تنظر بخوف إلى النهر الجارف الذي يفصل بينهم:

ـ كيف سنصل إليه.. أيمكن للجرار أن يعبر النهر؟

هزت المرأة رأسها، وقالت: «لا.. فالمياه تجري بقوة، وستحمل معها جذوع الأشجار المقطوعة.. على أي حال المياه عميقة جداً.. وروب لن يدعك تفعل ذلك».

نظرت لانث إليها بإعجاب.. فيما حوّل أليكس الضوء إلى الضفة المقابلة، ليوقفه عند نقطة لا تبعد أكثر من أربعة أمتار عن العربة المقلوبة.

سألت السيدة شاندون: «هل يمكن أن نربط حبلاً حوله؟».

ـ سنضطر إلى ذلك.

كشف ضوء الجرار عبوسه وهو يقدّر عرض النهر.. حوالى أربعون قدماً فقط، تفصلهم عن المزارع وكلبه. لكن المياه كانت شديدة السرعة.

قال أليكس: «لدي حبل، سأربطه في وسط الضفة وأحد طرفيه في الرانج روفر ثم بالجرار كي لا تنتزعه الماء من يدك. لا تدعيه يلامس الماء، وابقيه مشدوداً قدر استطاعتك وأنا سأقطع النهر».

نظرت السيدة شاندون بصمت إلى الآلة المكوّمة التي يرزح زوجها تحتها، بينما اعترضت لانث:

ـ هذا الأمر خطير جداً يا أليكس.

سأل أليكس زوجة المزارع: «كم يبلغ عمق الماء في العادة؟».

ـ متر.. وربما أكثر بقليل.

نظر إلى لانث، وقال: «لن تبلغ المياه رأسي.. وإذا وقعت يمكنكما جري من الماء».

اهتز كل كيانها احتجاجاً.. لكن وقبل أن تتلفظ بأي كلمة، قال: «إذا ما بقي هنا طوال الليل فستنخفض حرارته كثيراً».

استدارت لانث إلى السيدة شاندون، وسألتها:

ـ أليس هناك طريقة أخرى للوصول إلى هناك؟ أليس هناك طريق عبر التلال؟

هزت المرأة رأسها نفياً.

ورفعت لانث نظرها مهزومة إلى عيني أليكس، فرأت فيهما الثقة والبرودة والقسوة، وأدركت أنه الوحيد القادر على مساعدة روب شاندون. ولم ترغب في أن تقف مكتوفة اليدين، تراقب رجلاً يموت، لكن جزءاً منها، كان يخشى على سلامة أليكس.

بعد عشر دقائق، كانت تقف وزوجة المزارع بعيدتان عن بعضهما ولفافة الحبل أمامهما، تجرانها. ركنت السيارتان بشكل يسمح بتسليط الضوء على النهر وعلى العربة المنقلبة، والرجل المحجوز تحتها.

وهمست بصمت: «أرجوك ربي..».

لكن أليكس تابع طريقه ببطء، وتصميم، وتقدم في الماء المتدفق دون وجل.

أخذت المياه ترتفع من حوله بشراسة، حتى وصلت إلى خصره.. أوه.. يا إلهي.. وأمسكت أصابع الرعب قلبها تعتصره وهو يتعثر، لكنه استعاد توازنه، وأكمل مسيره ببطء.

وبالرغم من السيل الجارف، تمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى، فخرجت أنفاس لانث التي كانت قد حبستها سريعة متفجرة.

ورأت عبر المطر أليكس وهو ينطلق راكضاً نحو العربة وأسيرها.

ركع أمام الرجل.. وأطلقت شتيمة على المطر الغزير الذي منع عنها الرؤية. وبدا لها أن أليكس يخلع ملابسه.

لذع المطر وجهها، وتغلغل في شعرها، ثم تسلل بقطرات باردة إلى جسمها.. لكنها وقفت ثابتة، تراقب أليكس.

سادت لحظة ارتباك حين وقف الرجلان على قدميهما.. لم يكن روب شاندون بطول أليكس، لكنه أضخم جثة..

وسارا معاً ببطء فوق الأرض المشبعة بالماء.

وبسرعة، ركضت لانث نحو الجرافة، ولفت الحبل حول قضيب الجرّ. وشدته بقوة مذعورة، كي يشكل للرجلين دعماً ضد التيار القوي.. كان الحبل مبتلاً وثقيلاً، لكن الخوف أعطاها قوة وحشية.. وسرعان ما شدت الحبل بقدر ما أوتيت من قدرة.

بعد ذلك ركضت لتساعد السيدة شاندون. فلفت المرأتان الطرف الآخر من حول دفاع الروفر.. ثم عادتا نحو النهر.. ولحقت بهما الكلبة بوني وعيناها الذكيتان الحذرتان مركزتان على وجه السيدة شاندون.

بتوتر راقبت المرأتان الرجلين وهما يتوجهان نحو النهر.. وبعد نزولهما إليه، ساعد أليكس رفيقه على الإمساك بالحبل، وبدأ الاثنان رحلتهما البطيئة نحو الضفة الأخرى.. قالت المرأة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «لست أدري من يكون.. لكنه شجاع وذكي. وسأكون ممتنة له بقية حياتي».

شهقت المرأتان معاً حين تعثر روب، وتمسك جيداً بالحبل بينما امتدت يدا أليكس القويتان لتشدانه إلى فوق..

ركضت لانث وهي تضع يدها على فمها لتمنع صيحة صدرت عنها مع تعثر المزارع مجدداً. هذه المرة كاد يغرق.. لكن أليكس عاد وسحبه.

صاحت بلهفة: «أسرعا! أخرجا من هناك!».

تقدم الرجلان بحذر شديد.. وفي النور الساطع للأضواء الأمامية رأت

لانث وجه المزارع، الشاحب من الألم والبرد. ورأت أن أليكس قد استخدم قميصه ليربط له ذراعاً.

ولم تستطع نزع عينيها عن الرجلين، فأحدهما يتعثر باستمرار فيما لا يزال الآخر يحتفظ بشيء من قواه.

ثم أصبحا على بُعد خطوتين.. فتعثر روب شاندون مجدداً، وجرّ أليكس معه.

اندفعت لانث إلى المياه المتقلبة، وهي تصرخ: «لا!».

أمسكت بالحبل المشدود بيدها فيما امتدت الأخرى لتمسك بروب شاندون، وأطبقت أصابعها على شعره، وشدت رأسه إلى الأعلى خارج الماء. ورفعته بمساعدة زوجته من كتفه السليمة إلى ضفة النهر ليتنفس.

استدارت لانث مذعورة، لكن أليكس كان يقف على قدميه، وهو يسعل، وقد تسارعت أنفاسه.

مدت له يدها: «هيا».

ضحك، وأضاءت وجهه بهجة شديدة.. أمسك بيدها قائلاً: «أنت في الماء».

ضرب التيار قدميها وساقيها، وأفقدها توازنها، لكن أليكس شدّها إليه، ليحميها من دفق المياه. كانت عيناه تلمعان بالانتصار. ووقفت لانث والماء من حولها، لا تشعر سوى براحة شديدة، لأن أليكس بخير.

قالت: «نعم».

يداً بيد خاضا في المياه المتجمعة عند الضفة وهما يضحكان بخفة مفاجئة.. وعانقت لانث أليكس، فبادلها العناق ببهجة.

وبعد حين قال أليكس لروب شاندون، بلهجة آمرة: «دعنا نوصلك إلى منزلك».

والتفت إلى لانث: «خذي آل شاندون، وسأقود الجرار».

قالت محتجة: «لا بد أنك تشعر بالبرد.. عد بالروفر.. ففيه تدفئة».

ـ لا.. إذا تركنا الجرار هنا سيجرفه الفيضان.

كان التيار الكهربائي مقطوعاً في منزل المزارع. لكن السيدة شاندون قادت فرقة الإنقاذ الصغيرة بسهولة وكفاءة، وساعدت زوجها على دخول غرفة النوم، ثم التفتت نحو لانث التي كانت ترتجف.. وهي تمسك بالمشعل.. وقالت لها:

ـ خذي المشعل الصغير الموضوع قرب السرير لتقصدي غرفة الغسيل. هناك مصباحا غاز في الخزانة قرب المغسلة.

قطب أليكس حاجبيه وهو ينظر إلى لانث، ثم قال: «واخلعي عنك هذه الثياب».

قالت متصلبة: «أنا الأقل تأثراً بينكم».

قالت السيدة شاندون: «لا.. إنه على حق. خذي ما تشائين من الثياب المكوية على رف غرفة الغسيل، وخذي بعض المناشف.. جففي نفسك.. ستجدين ثلاث قوارير للماء الساخن في الخزانة السفلى.. املأيها في أسرع وقت ممكن».

وجدت لانث المصابيح، وأشعلتها، وحملت واحداً منها إلى غرفة النوم حيث كان أليكس والمرأة ينزعان ثياب زوجها.. رأت آثار الصدمة جلية على وجهه.. فأدركت أنه كلما أسرع في الخلود إلى النوم والزجاجات الساخنة من حوله كلما كان أفضل له.

عادت لانث إلى المطبخ المعتم الكبير، أشعلت الغاز ووضعت إبريق ماء فوقه. ثم نزعت ملابسها المبللة التي التصقت بجسمها، وجففت نفسها.. راحت ترتجف وهي تتخلص من قميصها وتنورتها قبل أن ترتدي ثياباً جافة..

غلت المياه، فسارعت لصبها في الزجاجات الخاصة.

سمعت حركة عند الباب، فأدارت رأسها.. ودخل أليكس بصمت إلى المطبخ.. فانعكس نور المصباح الأصفر على جسمه البرونزي.

أخذ نبضها يتسارع.. لكنه كان يرتجف. فقالت وهي تملأ الإبريق مجدداً: «يجب أن تبدل ملابسك».

ـ هذا ما أنوي فعله . . أين المشعل؟

التقطته عن المقعد وأعطته إياه . كانت يداه باردتين، فقالت: «سآخذ الماء الساخن إلى السيدة شاندون».

ولم تبق في الغرفة سوى لحظة، فقد كان المزارع في فراشه، شاحباً مرهقاً، عيناه مغمضتان وفمه خط رفيع من شدة الألم.

عادت لانث إلى المطبخ، وأصغت إلى صوت المطر يضرب ألواح الحديد على السطح، ويكتم كل صوت آخر ما عدا الصوت الأجش المنخفض الذي كان يصدر عن روب شاندون بينما زوجته تعالج له ذراعه . . تمنت لانث، وهي تصر على أسنانها، أن يسخن الماء بسرعة.

عاد أليكس وحاجباه مقطبان . . كان من المفترض أن يبدو مرهقاً، لكن طاقته وحيويته تغلبتا على تعبه . . وسألته لانث بحدة، لم تقصدها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

واختفى العبوس عن وجهه، وهو يقول:

ـ أجل . . إنه بخير . . لكنه لا زال يتألم كثيراً. وسيكون بخير، إذا ما وفرنا له الدفء اللازم.

ـ تبدو وكأنك تشعر بالبرد.

ـ لا تقلقي علي. أنا أشد قسوة مما يبدو عليّ.

وأخطأت حين رفعت نظرها إليه . . فقد بدا راضياً، بعينيه البرّاقتين، وعكس وجهه شجاعة تتعدى الشجاعة الجسدية الصرفة . . .

أما هي . . فقد سيطر عليها طويلاً خوف مرضي غبي . . ترى، هل يعني خوضها في النهر اليوم نهاية هذا الخوف؟ أوه . . كم تتمنى هذا!

سألته: «ألا زلت ترتجف؟».

ـ لا . . أنا بخير يا لانث . . لا تقلقي.

أمسكت زجاجة الماء الساخن وملأتها، فأخذتها منها أصابع رقيقة، ثم أمسكت بمعصمها: «كيف حالك أنت؟».

ـ لم أبرد كثيراً . . كان المطر دافئاً، كما لم أبقَ في النهر طويلاً.

كان لونه في الواقع قد عاد إلى طبيعته، ولم يظهر أي أثر للشحوب حول فمه.

أكمل بصوت متغير: «أنت مصابة بقروح».

ـ بسبب الحبل.

توقف قلبها وهو يرفع يدها ليقبل التورم الصغير في راحتها: «لقد قمت بدورك جيداً. أنت لا تخافين . . وهذه ميزة نادرة».

وتركها ليخرج من المطبخ.

وقفت لانث ساكنة للحظات، وراحت تضغط بكفي يديها المقرحتين على خديها المحمرين . . ثم تابعت عملها.

وبعد ساعة، حملت الشاي إلى السيدة شاندون الجالسة قرب زوجها النائم، ثم عادت لتشرب فنجانها في المطبخ مع أليكس . . وبعد أن شكرها على الشاي، التزم الصمت . . وعادت الحواجز لترتفع بينهما . . بدا وجهه صارماً قاسياً، وكأنه يمنع أي محاولة تواصل بينهما.

وبعد أن حضرت السيدة شاندون السندويشات وأصرت على أن يأكلاها، اقترح أليكس أن يتناوبوا على مراقبة الرجل النائم . . وحين اعترضت، قال أليكس بلطف:

ـ لا نعرف كم ستبقى الطريق مقطوعة، لذا ستحتاجين إلى بعض الراحة.

فقالت السيدة شاندون: «سأستلقي قرب روب لأدفئه . . وقد أنام قليلاً».

ـ أيقظيني إذن بعد أربع ساعات، أو إذا احتجت إلى مساعدة.

ابتسمت المرأة وقالت: «حسناً، سأفعل».

قالت لانث: «لا توقظيه . . أيقظيني أنا».

التفتت إلى أليكس:

ـ لقد قمت أنتَ بما عليك الليلة، وتحتاج إلى الدفء، وللنوم أيضاً . . لا بد أنك مرهق.

بدا المرح في صوت السيدة شاندون وهي تقول: «إنها على حق.. وتعرف هذا. سأوقظها هي».

رفع أليكس جفنيه المثقلين، وابتسم قائلاً: «حسناً».

نظرت السيدة شاندون إلى ساعتها وقالت بتعجب: «إنها الساعة العاشرة فقط.. بدا لي أننا قضينا معظم الليل على ضفة النهر».

سألتها لانث: «هل أنت بخير؟».

ـ أجل.. وممتنة لكما، فلولا وجودكما لما استطعت الوصول إلى النهر، ناهيك عن رفع العربة عن روب.

قال أليكس: «كنت ستتمكنين من ذلك.. فمن المذهل ما يمكن للمرء أن يفعله حين تكون حياة من يحب في خطر».

ابتسمت السيدة شاندون، وردّت: «أعرف.. والآن، اذهبا وناما قليلاً».

اختارا غرفتي نوم متقاربتين، غرفتا أولاد أسرة شاندون. وعند باب غرفة لانث، قال أليكس: «هل أنت بخير؟».

ـ أنا بخير.. ماذا عنك؟ أستطيع أن أسخّن لك بعض الماء لتغتسل.

ـ ليس الأمر ضرورياً. فأنا لم أصب بالبرد كروب.

نظر إليها في ضوء المصباح المعلق في الردهة الضيقة، فحبست أنفاسها في حلقها فجأة.

قالت بسرعة، لتقطع الصمت: «إن إنقاذ روب عمل بطولي».

هز كتفيه، وأجاب: «هذا ما كنت لتفعلينه لو لم أكن موجوداً».

ـ أشك في ذلك..

كانت ساقها تؤلمها، إنما ستؤلمها ذراعاها وكتفاها في الغد.. وأحست بالسخط مجدداً لأن هجمة القرش جعلتها عاجزة.

عندها قال: «أتمنى لك ليلة سعيدة».

ـ ليلة سعيدة.

استدارت لانث ودخلت إلى غرفتها على عجل لأنها كانت تعلم أنها

ستتصرف بغباء إذا ما بقيت.

وضبطت ساعتها ثم خلعت تنورتها وخلدت إلى النوم.

حين انطلق رنين منبه الساعة، تسللت من سريرها، وترددت للحظة قبل أن تتوجه مرتجفة، وبساقين عاريتين، إلى الباب.. وبالرغم من أن المطر قد توقف إلاّ أن هبّات الريح القوية كانت لا تزال تضرب المنزل.. رأت شعاع نور فضي يتسلل من تحت باب غرفة النوم الرئيسية. ترددت مرة أخرى، ثم تابعت طريقها إلى المطبخ وأشعلت النار. وما أن اشتعلت حتى استغلت وهجها لتملأ وعاء الماء وتضعه على النار.

ـ لانث؟

صوت أليكس المنخفض جعلها تجفل.

ـ أنا هنا.

أقفل الباب خلفه وتقدّم نحوها، قائلاً: «ألم تتمكني من النوم؟».

ـ فكرت في أن أعيد ملء الزجاجات بالماء الساخن.

صمت للحظة، ثم قال: «سأفعل هذا في المرة القادمة».

ـ لا داعي لذلك.

وابتعدت عنه لشدة قربه منها.

قال: «أنا أؤمن بالمساواة، سأحضر إحدى الزجاجات».

عاد بعد دقائق.. فسألته لانث: «كيف حاله؟».

ـ لا زال يتنفس بصعوبة.. لكنه يتحسن.. وأنا مسرور لأن زوجته تدرك ما تفعله.

حين نظرت إليه، رأته يتأمل ساقيها البارزتين بغموض على وهج النار الخفيفة الدافئة.

فكرت في أنّ عليها أن تتحرك، أن تخفي ندبة الجرح عن عينيه، لكنها وقفت مسمرة. لقد رآها من قبل.. كما أنه لا ينظر إلى جرحها. انتظرت ساكنة بينما تحركت نظرته الثاقبة إلى الأعلى، لتحرّك معها مشاعر خفية، جارفة، غريبة، جعلتها تحترق في عمق عينيه الصافيتين.

سرت الحرارة في أوصال لانث.. وازداد احمرار بشرتها.. وكان أليكس يراقبها بجفنين نصف مغمضين، يرسلان رجفة فريدة فيها.

قال بصوت خشن واضح: «تبدين كحورية بحر.. أقسمت ألا ألمسك وألا أدعك تؤثرين فيّ.. لكن كان الأوان قد فات بعد أن رأيتك للمرة الأولى.. وقفت في تلك الغرفة ورفعت ذقنك، ورأيت الكدمات التي تسبب بها مارك في معصمك، فوددت أن أقتله».

هزت لانث رأسها محتارة مصدومة، وضحك هو بهدوء ودون مرح، وازداد قسوة وهو يحاول كبح جماح مشاعره.

قال: «لا بد أن المياه سخنت بما يكفي».

تمتمت: «تقريباً».

ومدت يدها لتأخذ الزجاجة.

مددت لانث جسمها المتألم ببطء، واستيقظت. لقد تحوّل قرع المطر المتواصل على ألواح الحديد إلى نقر خفيف، وتناهت إلى مسامعها زقزقة عصافير الصباح.

هبت بسرعة من فراشها بعد أن ألقت نظرة سريعة على ساعتها. ارتدت التنورة التي استعارتها، ثم ركضت عبر الردهة. وكانت على وشك أن تقرع باب غرفة النوم الرئيسية حين فتحت السيدة شاندون الباب، وهي تتثاءب وتدعك عينيها.

سألتها لانث: «كيف حاله»؟

كان الرد مرتسماً على وجه السيدة شاندون.. ولم تكن ابتسامتها خالية من القلق، لكنها لم تكن تحمل الخوف الذي رأته في الليلة السابقة.

ـ محموم ومتألم، لكنه سينجو.. آمل أن تفتح الطرقات لننقله إلى المستشفى.. أتريدين فنجان شاي؟

ـ أود ذلك.

أغلقت المرأة الباب وراءها، وسارت مع لانث في الممر.

ـ شكراً لك على كل ما فعلته من أجلنا.

ـ لم يكن شيئاً يذكر.. هل نمت جيداً؟

دخلت المضيفة إلى المطبخ، وقالت بابتسامة، وهي تدير الغلاية الكهربائية:

ـ لقد غفوت مراراً.. وقد عاد التيار الكهربائي حوالى الساعة الرابعة والنصف من هذا الصباح.. عندها كان روب يتنفس بسهولة أكبر، وبدت حرارته طبيعية، لهذا نهضت من الفراش وغسلت ثيابكما ووضعتها في النشافة قبل أن أعود إليه مجدداً.. بعد ذلك نمت ملء جفنيّ.. إذا أردت كيّ ثيابك فهي لا تزال في النشافة.

قالت لانث بامتنان: «أوه.. شكراً لك..».

وبعد أن شربتا الشاي، شرعت لانث تكوي ثيابها.. كانت قد انتهت من عملها وارتدت بنطلونها وقميصها، حين أصابتها قشعريرة، فالتفتت خلفها.

وقف أليكس بالباب وهو لا يرتدي سوى البنطلون الذي ارتداه في الليلة السابقة، وقال بصوت من صحا من النوم لتوه: «صباح الخير».

أبعدت لانث نظرها عن صدره وقالت بما استطاعت من الهدوء:

ـ مرحباً.. لقد جربت السيدة شاندون خط الهاتف، ولا يزال مقطوعاً.. هل أحضرت معك الهاتف النقال؟ يجب أن نعرف ما إذا كانت الطريق مقطوعة أم لا.

هز رأسه إيجاباً.. لم يزعج لانث أن تكون السيدة شاندون قد رأت شعرها المشعث، لكن هذا الأمر أقلقها الآن.

قال: «لا يزال في الروقر، سأذهب لأتصل بخدمات الطوارىء. لكنهم لن يتمكنوا من إخلاء الطريق بسهولة، سيحتاجون إلى جرّافة. وبما أنها مستخدمة كلها على الأرجح في دراغاڤيل لإبقاء نهر وابروا تحت السيطرة، سنضطر إلى طلب طوافة».

ـ هل تريدني أن أكوي لك ثيابك فيما أنت تتصل؟ لقد غسلتها السيدة شاندون وجففتها ليلة أمس حين عاد التيار الكهربائي.

رد ببطء وكأنه يفكر في كل كلمة يقولها: «لا.. سأفعل هذا بنفسي».

وتركته لانث مسرعة، وهي تعي عرجها ببؤس.

بعد خمس دقائق، كانت متوجهة إلى المطبخ بعد أن غسلت وجهها، وجدلت شعرها، حين سمعت أصواتاً في غرفة الغسيل. ترددت، ثم تبعت الصوت، فوجدت أليكس يقف جانباً وينظر متسلياً إلى مضيفته وهي تكوي الثياب بمهارة اكتسبتها عبر السنين. كانت تقول: «يريد أن يراك».

وأدارت رأسها لتشير إلى لانث: «كلاكما.. حين تستعدان طبعاً».

جذبت السيدة شاندون القميص عن لوح الكوي بحركة سريعة وناولته إياه، قائلة:

ـ هاك.. إذا انتظرت لحظة سأكوي لك السروال.

ارتدى القميص وزرره بعينين لامعتين: «لانث تعتقد أنه عليّ أن أكويه بنفسي».

قالت لانث: «سيكون هذا أفضل لشخصيتك».

فردت المضيفة: «توقعت أن تكون شخصيته قد تكونت الآن».

وأخذت تكوي السروال بيد خبيرة، لتقول بعد حين: «ها قد أنهيته.. سأعد الفطور».

قال أليكس: «سوف أرى إذا كان بالإمكان طلب مساعدة فرق الانقاذ مرة أخرى».

فالتفتت إليه السيدة شاندون بابتسامة خجولة، قائلة: «إذهب لمقابلة روب أولاً.. من فضلك».

ما بدأ كمقابلة مرتبكة، تحوّل إلى حوار سهل بفضل لباقة أليكس.. وخلال دقائق، أدركت أن المزارع معجب بالرجل الذي أنقذه، وأن هذا الشعور متبادل.

قال أليكس: «كلنا تعاونا.. هل تمكنت من نقل الماشية قبل أن تنقلب بك العربة؟».

ـ أجل.. ولا أعلم بالضبط ماذا حصل.. لا أتذكر.

ـ هذا بسبب الضربة على رأسك.

قالت لانث: «لا نحتاج إلى ضربة.. فالصدمة كفيلة بهذا».

فهي بالكاد تذكرت أن القرش هاجمها، لكنها رأت الفيلم الذي صور المشهد، لهذا تعرف ما حدث.. إنما الحادثة نفسها محيت من عقلها.. وتظن أحياناً أنها كانت لتتعامل مع الحادثة بشكل أفضل لو أنها تتذكرها.

نظر أليكس إليها نظرة ثاقبة، ثم هز رأسه، وعاد ليتحدث إلى روب: «لا تقلق.. المهم أنك سالم والماشية كذلك».

وذكرته لانث: «والكلبين».

لمع المرح في عيني أليكس حين قال روب: «أجل.. بحق السماء!».

***

٧ ـ بين الحب والواجب

كانت الطريق لا تزال مقطوعة. وقال أليكس بحزم للشخص الذي على الطرف الآخر من الخط: «فلتكن طوافة إذن».

كانت السلطة جلية في نبرة صوته، وحين حاول الشخص الآخر التملص، قال دون أن يلين:

ـ هذا لن يفيد.. يجب أن يصل إلى المستشفى في أسرع وقت ممكن، وكفى..

أصغى قليلاً ثم أضاف: «أجل.. سننتظرها».

أبعد الهاتف النقال، وقال: «سيصلون بعد نصف ساعة».

استمعت السيدة شاندون للجدال وهي تجلس قرب زوجها، ثم هزت رأسها، وقالت: «سأضطر للبقاء.. يجب أن يعتني أحدنا بالقطيع».

وسأل روب: «وماذا عن السيارة؟».

فأجابه أليكس: «سنعيدها إلى هنا، في الواقع نستطيع أن نفعل ذلك الآن».

ساد الصمت خلال رحلة العودة إلى المنزل قرب البحيرة. وأحست لانث بالكآبة، فما أن تُفتح الطريق، حتى يعيدها إلى منزلها ولن تراه مجدداً.. وبدا أنّ أليكس ليس لديه ما يقوله.

قادت الروڤر إلى المنزل ولحق بها أليكس في سيارة أسرة شاندون.. وفيما عبرا بوابة المزرعة سمعا صوت محرك هليكوبتر قريبة.

وبعد أن ودّعا روب، شربا الشاي مع السيدة شاندون، التي شكرتهما،

وأكدت لأليكس أنها ستطلب منه المساعدة إذا احتاجت لذلك. ثم عادت وشكرتهما مجدداً.

ترددت لانث في خرق الجو المشحون.. فقد انطوى على نفسه، وبدت قسماته قاسية، متجهمة.. حين استدارا نحو البحيرة، سألت: «هل يمكن للرانج روڤر أن تسلك الطرقات الوعرة في المزرعة؟».

ـ لا.. سيصعب سلوك هذه الطرقات حتى الغد على الأقل.. ستضطرين للانتظار حتى تنظف الطرقات قبل أن تتمكني من العودة إلى منزلك.

هزت لانث رأسها.. وأملت أن تفتح الطريق قريباً.

في لحظة ما، في الساعات الأربع وعشرين الماضية، خطت مشاعرها خطوة عملاقة نحو المجهول.. وحتى الأمس، كانت تقنع نفسها بأن مشاعرها لا تتعدى الانجذاب.

لكن، وبعد أن تبادلا الأحاديث في الليلة الماضية، وبعد أن رأته يمازح السيدة شاندون على أثر خروجه من النهر، وبعد ذاك العناق الذي غمرها بهجة.. وبعد كلماته الصريحة التي قالها بصوت أجش عند منتصف الليل، وبعد رؤيته غير حليق الذقن وعاري الصدر في الصباح الباكر، لم تعد تفهم مشاعرها.

إن الانجذاب أمر يسهل التعامل معه. يمكن تجاهله، وتحمّل أله، فسيتلاشى في النهاية. لكن الحب.. ذلك المزيج المعقد من المشاعر، من الحاجة والوعد والأمل، من الشوق والاحترام والإعجاب.. أوه.. الحب أمر أكثر صعوبة.

لكن الوقت لم يتأخر بعد.. واست نفسها بهذا وهما يركنان السيارة تحت الظليلة المسقوفة.. لن تنسى أليكس، لكن حين تفترق عنه سوف تتغلب على مشاعرها.

فتحت باب السيارة متجاهلة وخزة الألم في قلبها، ونزلت.. واستندت للحظة على الباب لتريح ساقها، ونظرت إلى السماء. كانت السحب

السوداء الثقيلة تتحرك، تبتعد، وتنشتت.

قالت لانث، ممتنة لعثورها على موضوع محايد: «لقد نجونا هذه المرة.. أتساءل عما إذا كان الإعصار قد تسبب بأضرار في الجنوب».

نظر إلى ساعته، وقال: «يمكننا أن نسمع الأخبار على الراديو».

قال لهما صوت المذيع اللطيف أن هناك بعض الفيضانات.. لكن الإعصار الشهير ابتعد عن مياه بحر «كاسمان» بسرعة وتشتت مركز قوته بسبب التيارات الباردة القادمة من القطب الجنوبي.

بدأت لانث تقول: «هذا خبر مفرح..».

ـ أصمتي!

التفتت إليه مجفلة، لترى أن حاجبيه انعقدا وهو يسمع المذيع يقول: «تورط الجيش في الاضطرابات في اليريا، حيث ينظم آلاف المواطنين ومنذ ثلاثة أسابيع، مظاهرات احتجاج ضد الإدارة الحالية. وقد سمع إطلاق نار كثيف في أنحاء المدينة، وطلب من الأجانب المغادرة».

مال أليكس إلى الأمام وأطفأ الراديو، ثم سألها: «أترغبين في فنجان قهوة؟».

ترددت لانث، وأجابت: «ليس الآن.. شكراً لك».

لم يتغير الوجه المتسلط القاتم، لكنها أحست بمشاعر جياشة تستتر خلف هدوئه. وانقلب الثلج في عينيه إلى فولاذ.. سألته: «أخبرتني أن عائلتك في اليريا ماتت كلها.. لكن ألا زلت تعرف أشخاصاً هناك؟».

نظر إليها بقسوة: «ولماذا تسألين؟».

برزت لكنته مجدداً، وإن بشكل خفيف.

ـ يبدو لي أنك مهتم جداً بما يجري هناك.

لم يقل شيئاً. وفي الخارج أطلق طائر نورس صيحة طويلة شقّت الصمت الذي كان صداه يلف لانث، ويجمد عظامها.

وأخيراً قال: «أنا اليريّ..».

فغرت فمها، لكنها لم تنطق بأي كلمة. وضاقت عيناه اللامعتان، وهو

يسألها: «ألم تخمني ذلك بعد؟».

قالت بغباء: «لا.. ظننتك إيطالياً».

ـ لقد تربيت في اليريا في قرية جبلية صغيرة حتى بلغت العاشرة من عمري.. وحين أسر الشيوعيون أبي، اضطررت أنا وأمي للهرب.. وانتهى بنا المطاف في أوستراليا.

أرادت معرفة المزيد.. لكن رعباً مفاجئاً صدمها. وسألت بهدوء: «أنت من عليه أن يعود إلى هناك.. أليس كذلك؟».

وساد الصمت من جديد.. وتحولت نبضات قلبها إلى خفقات بطيئة، تضج في أذنيها. حدقت فيه، لترى رجلاً مختلفاً.. طاقة مشتعلة متحدية، وأدركت أنه سيغادر ليحقق مصيراً لا دور لها فيه.

مدّت يدها إليه، وقد عجزت عن السيطرة على مشاعرها: «أليكس.. أليكس.. ستنشب الحرب هناك».

ـ قد أتمكن من وقفها.

أمسكت بمعصمه تهزه: «لن تستطيع.. أنت رجل واحد! حسناً.. لديك السلطة والمال.. لكنها حرب أهلية وقد تقتل!».

أطبقت يده على يدها، وقال: «لا أظن ذلك».

وأضاف، وهي تفتح فمها لتتكلم: «يجب أن أذهب».

اعترضت بشراسة: «أنت لست مسؤولاً عنهم».

اخترقت عيناه عينيها، بضراوة، وقال ببساطة: «بلى.. أنا مسؤول».

أطلقت زفرة حادة. لكنها بقيت صامتة، ولم يقل هو شيئاً.. كما لم يحاول مساعدتها، وهي تنظر إليه مشدوهة، مرتاعة.

وبعد لحظات تمتمت: «أنت.. الأمير.. الضائع.. أليس كذلك؟».

التفت إلى وجهها المصدوم الشاحب وقال بخشونة:

ـ أنا ابنه.. وأتمنى أن يكون ميتاً.. وإن لم يكن ميتاً، فهو في سجن الشيوعيين منذ أربع وعشرين سنة.

أبعدت يدها عن معصمه وكأن بشرته مشحونة وعظامه حارة كالجمر.

أخذت نفساً عميقاً، ثم همست: «سيقتلونك إذا عدت».

- ولمَ سيقتلونني؟ هم مثلك.. فالشيوعيون السابقون، والطبقة الحاكمة لا يصدقون أني قد أهتم بشؤون اليريا.. على أي حال، إني أتمتع بسلطة أكبر، وثراء أعظم.. فما الذي سيغريني للعودة إلى بلاد صغيرة، غير مستقرة، وفقيرة؟

كانت ابتسامته خشنة غير مرحة، وقد ترافقت مع الكلمات التي تردد صداها بسخرية باردة جارحة.. وأكمل: «إن كنت سأتعرض لأي خطر، لتلقيت تهديداً.. أنا لم أطلع أي شخص على هويتي من قبل.. لكن الشعب سمع إشاعة تفيد أن أحد أفراد أسرة كونسيدين لا زال حياً. لهذا يتظاهرون.. وأنا أشعر بأني مسؤول عنهم.. على أي حال، لن أعود لأطالب بالعرش. والله أعلم، بأني لا أريد هذا النوع من السلطة.. لكن إذا لم تتخذ إجراءات سريعة، قد يقتل الآلاف، في حرب أهلية لا طائل منها. وقد أتمكن من وقف المزيد من سفك الدماء».

- كيف؟

هز كتفيه واستدار مبتعداً.

- لقد اتصل بي أشخاص عديدون، من أصحاب النفوذ، الذين لم يقطعوا الأمل من أن أحد أفراد أسرة كونسيدين، سيعود يوماً ليستعيد العرش.. وهم يؤمنون أنني أملك نوعاً من السلطة على الناس نظراً لنسبي. والجيش هو مفتاح الحل، وإذا عدت، قد يقتنع قادة الجيش بضرورة الإطاحة بالطبقة الحاكمة ومساعدة الشعب على تشكيل حكومة ديموقراطية.

قالت غاضبة: «أو أن الطبقة الحاكمة ستقتلك».

- هذا غير محتمل.

- بحق السماء.. هؤلاء الناس يحاولون التمسك بالسلطة.. إن ثروتك وشهرتك وقوتك لن تحميك.. وتعرف ذلك. فالرصاص يقتل المشاهير مثلما يقتل العاد..

وضع يده على فمها، ليوقف دفق الكلمات الفزعة، فابتعدت لانث

عنه، وجاهدت لتسيطر على نفسها وعلى عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع.

وبهدوء شديد.. قال أليكس: «يجب أن أذهب يا لانث».

عضّت على شفتها، وقالت بحدة: «لا يحق لي أن أمنعك».

وآلمت الكلمات حنجرتها، وقد أثقلتها دموع لم تذرفها. قال:

- أنا مدين لهم بهذا.. عليّ أن أحاول وقف المجازر التي تشاهدينها على شاشة التلفزيون كل ليلة. أي نوع من الرجال سأكون لو بقيت بعيداً وتركت كل هذا يحدث؟

- ستكون رجلاً متعقلاً.

خرجت هذه الكلمات من أعماقها بعنف.

فردّ بقسوة: «لكن دون شرف».

ورأت أن لا سلطة لها عليه ليغير رأيه. فتنهدت:

- لا.. وعديم المسؤولية كذلك.. وهذا هو الأمر الأهم بالنسبة لك.. المسؤولية.

هز كتفيه وقد أصبح فجأة غريباً عنها.. ثم قال بهدوء: «هذا ما ربيت عليه.. هل أنت جائعة؟».

فردت بدهشة: «لا.. كم الساعة الآن؟».

- تقارب الواحدة.. سنتناول الغداء، ثم سأرى إذا كانت الطريق مفتوحة بما يكفي ليمر الروڤر.

سيعيدها إلى الباتش، ويودّعها. ولن تراه من جديد.. إلا على شاشة التلفزيون.

وفي المطبخ الحديث، حضرت لانث المعكرونة، فيما حضر أليكس السلطة وأخرج الفاكهة.

لم تكن شهيتها مفتوحة. لكن، ولترضيه، أخذت تأكل على مهل. جلسا على الشرفة، فراحت تراقب المياه وهي تستعيد لونها الطبيعي مع اختفاء الغيوم تدريجياً واختراق أشعة الشمس لها. علقت في حنجرتها غصة صلبة ثقيلة.. وبينما هما يشربان القهوة، رن جرس الهاتف.

التقطه أليكس مقطباً، وقال: «مارك؟ كيف الأحوال عندكم؟».

أصغى قليلاً ثم قال: «تأكد من أن شقيقتك لا تحتاجك».

بدا أنها لم تكن تحتاجه، لأنه قال إنه سيعود ما أن تفتح الطريق.

أراحت لانث عضلات وجهها المشدودة.. وكان التوتر قد بدأ يظهر عليها.. وأحست بقلق أليكس، فهو يود التخلص منها سريعاً.

ولتبتعد عنه، قالت: «ساقي تؤلمني.. سأستلقي إلى أن يتوقف الألم».

- طبعاً.. هل ترغبين في مسكّن للألم؟

- لا.. سرعان ما يخف.

ذكّرت لانث نفسها وهي تتجه نحو غرفة النوم: «لن يتحطم قلبك فقد حزنت من قبل، وشفيت. ولعل ما تشعرين به الآن هو الإحباط ليس إلا.. لأنك تحبينه وتعلمين أنه سيرحل».

لم تتطور علاقتهما.. ولن تتطور، لكنها لن تنسى أليكس أبداً.

كما أنه لن يُقتل في تلك الإمارة الصغيرة في المقلب الآخر من العالم.. ولن يكون القدر ظالماً إلى هذا الحد.

ارتجفت، بالرغم من الحرارة العالية والرطوبة، فأبعدت الأغطية عن الفراش وخلعت حذاءها وثيابها، واندست في الفراش الكبير المريح.. وراحت تتذكر كل لحظة منذ التقت أليكس، كل كلمة قالها، كل تعبير استطاعت حل لغزه. وحين غالبها النعاس، عقدت صفقة مع المستقبل. لن تتعلق به، لن تقول له إنها وقعت في حبه، لن تبكي أو تحزن، على أن يبقى حياً، فهذا كل ما تطلبه.

استيقظت على قرع بابها، وصوت أليكس.. كافحت لتجلس مستوية على الوسادة فقالت بصوت أجش متكسر، دون وعي وبارتباك: «ادخل».

ودخل أليكس من الباب، ثم توقف، وهو يراها مستلقية على السرير فاشتعلت عيناه اشتعالاً بعث الدم إلى وجنتيها.. كان الغطاء الذي تدثرت به أثناء نومها قد وقع عنها. يجب أن تشدّ الغطاء إلى فوق صدرها، أن تخفي نفسها عن النار في عينيه.. ويجب أن تخرج من منزله في أسرع وقت ممكن..

فما من مستقبل لهما معاً.. ومع ذلك، أبقاها خوفها عليه وقلقها من ألا تراه مجدداً في مكانها.

قالت بصوت أجش مليء بالشوق: «أليكس؟».

أغمض عينيه، ثم فتحهما على الفور.. نظراته الممعنة واشتعال عينيه بهذا البريق أرسل أحاسيسها في انطلاقة سريعة.. وبصوت خشن مكتوم قال: «أنت جميلة جداً».

وكاد قوله يكون اتهاماً.. هزت رأسها.. وقالت ببساطة: «وأنت وسيم.. أنت أوسم رجل رأيته في حياتي».

شدّ على يديه في قبضتين.. وقال بحدة، وشراسة: «هذا تهوّر.. يا لانث».

ابتلعت غصة في حلقها، وهي تقول: «أعلم».

- يا إلهي.. باستطاعتي احتمال أي شيء ما عدا الحزن!

تقدم نحو السرير بخطوات سريعة صامتة، وجلس على حافته، وارتجفت يده وهو يلامس وجهها.

أشعلت هذه الحركة البسيطة مشاعرها، فرفعت يدها لتبقي يده على خدها، والتقت عيناها بعينيه بشيء من الخجل، والإلحاح.

ظهرت لهفة حارة في عينيه، جعلت النار تسري في شرايينها، وتحطم كافة حواجز المنطق السليم، والحذر، والحزن.

ثم وجدت نفسها بين ذراعيه يعانقها بشوق محموم، وما كان منها إلا أن بادلته عناقاً بآخر مشبع بمزيد من الشوق.

وقال بصوت أجش: «شعرك كأشعة الشمس، وهو أول ما لفتني فيك.. كان كثيفاً، مليئاً بالنور، وفيه خصل خفية نارية بلون النحاس اللماع.. وانجذبت إليك يومها..».

دفن وجهه في شعرها ففكرت لانث مبهورة.. في أنها لن تقصه ثانية.

وأخذت يد متملكة تمر بكتفيها فعنقها، على البشرة الحريرية الملمس.

علقت أنفاس لانث في حنجرتها.. وتاقت لضمة أخرى من ذراعيه.

لكنه هبّ واقفاً فجأة، وقال بخشونة: «لا!».

صرخته المتوحشة صدمتها وقضت على أحاسيسها المتفتحة. وامتدت أصابعها تلقائياً، مرتجفة خرقاء إلى ساقها، تتلمس أثر الجرح. ولم تستطع أن ترفع عينيها إليه، وتمنت أن يخرج ويتركها مع ذلها وحيدة.. فأدارت رأسها وركزت نظرها على الأشجار خارج النافذة.

قال بحدة، وقد لاحظ ردة فعلها اللارادية: «الأمر لا يتعلق بساقك».

فردت بصوت رفيع متوتر: «لا تشغل بالك، أعرف أنه بشع.. وسأجري له جراحة تجميلية في السنة المقبلة.. لكنه سيترك أثراً دائماً.. لا بأس بهذا».

وأغمضت لانث عينيها، وهو يلامس أثر الجرح بأصابع ثابتة. وارتجفت، وهي تشعر بلمسته تسري في عروقها.

قال بعناد: «أنتِ مخطئة.. انظري إلي».

ماذا يريد بحق السماء.. أن يدمي قلبها، أن يستخف بها؟

كرر كلامه: «انظري إلي».

جاء صوته، هذه المرة، خفيضاً قاسياً وآمراً حاملاً في طياته إصراراً خطيراً يطلب الإذعان.

أدارت رأسها، ورفعت رموشها.. كان وجهه قناعاً عنيداً منحوتاً بخطوط عدوانية تثير الاضطراب.

قال، بصوت هادىء بارد: «أي رجل ينفر من هذه الندبة، لا يستحقك. أنت كنار سائلة تحت أشعة الشمس، فالعسل يتدفق من صوتك، وضحكتك الدافئة تذيب الجليد، وتحوله إلى بخار».

أوه.. كم تريد أن تصدقه، وأخفضت نظرها لتتأمل يده السمراء التي وضعها على جرحها.. وهمست: «لماذا إذن.. ابتعدت.. عني؟».

ضاقت عيناه الزرقاوان، وقست خطوط فمه، وهو يقول:

ـ لن أقيم معك علاقة كجندي متوجه إلى الحرب، فأنا لا أستطيع أن أقدم لك شيئاً.

كانت كلماته باردة ولاذعة كضربات السوط على قلبها.. وأكمل:

ـ ولا مستقبل لنا.. حتى أنني لا أستطيع أن أقدم هدية لك لأنني سأغادر نيوزيلندا في وقت متأخر من هذه الليلة.

هذا هو إذن الإحساس بتمزق القلب إلى قطع صغيرة.. أوه.. لطالما حذّرها عقلها من أنها لن تحصد سوى الدمار من ذلك التجاذب الجامح بينهما. لكنها كانت تأمل.. والآن حل الأسى المرير مكان تلك الآمال.

قالت مجدداً: «لا بأس.. لا تقلق أليكس.. أفهمك».

حاول أن يتكلم، لكنه عاد وصمت.. وسمعت ضربات قلبها المتسارعة، وأنفاسها المتقطعة. وفكرت يائسة بأنها لن تستطيع الاحتمال.

كتمت مشاعرها لأنه الحل الوحيد، وقالت: «أليكس.. أجدك جذاباً جداً.. لكننا لا نعرف بعضنا جيداً.. لا نعرف بعضنا أبداً في الواقع».

قال ساخراً: «إذن، سيكون النسيان سهلاً؟ هذا ما أرجوه. لن أقيم معك علاقة يا لانث، لأنك تستحقين أكثر مما أستطيع أن أعطيك».

وقطع الغرفة، ليقف كالشبح في الباب.. ثم قال دون تركيز:

ـ لكن، لا تظني أبداً أنني لا أريدك.. بل أريدك. أكثر مما أردت أي شيء في حياتي.. بل على الأصح، أكثر مما سأريد أي شخص آخر في المستقبل.. كما أخشى.

فتح الباب وخرج، ليقفله خلفه دون صوت. ورمت لانث بنفسها على الوسائد، وقلبها يخفق بعشوائية.. أوه.. لقد عنى ما قاله.. لهجته التي عبرت عن مدى توقه إليها أشعلت كل كلمة قالها بالنار.

جلست تحتضن نفسها وتتأرجح إلى الوراء وإلى الأمام.. هذا الاعتراف هو كل ما ستناله من أليكس. ودّت لو تذرف الدموع المحتبسة في داخلها.. وخرجت من السرير بسرعة واستحمت وارتدت ملابسها.. وفكرت بحرقة، أنها تفضل مواجهة ذلك «القرش» مرة أخرى على أن تدخل غرفة الجلوس لتودع أليكس.. لكنها مضطرة لأن تفعل، وعزاؤها الوحيد أنها ستعود إلى منزلها قريباً.

رفعت ذقنها، وهي تدرك تماماً أن هالات سوداء تحيط بعينيها، وأن بشرتها شاحبة من شدة التعب، واتجهت إلى غرفة الجلوس.

كان أليكس يقف على الشرفة، ينظر إلى الماء. لكن حين دخلت الغرفة، استدار، وضاقت عيناه وهو ينظر إلى وجهها.

قال: «أصبحت الطرقات مفتوحة».

أحست بتصلب في شفتيها.. وقالت بصوت أجش: «إذن.. أستطيع العودة إلى الباتش».

ـ أجل.

شقا طريقهما في السيارة عبر أراضٍ ريفية مشبعة بالماء.. وعلى بعد أمتار من بوابة أرض أليكس، انهارت صخور رملية على الطريق، فغطتها بالحجارة والطين.

فتح أليكس الباب قائلاً: «ابقي هنا».

وسار إلى مؤخرة السيارة ليعود ومعه رفش.

أخذ يزيل الركام الذي قطع طريقهما وكأن جزءاً منه يجد لذة في العمل الجسدي.. وراقبت لانث عضلاته تتحرك تحت قماش قميصه القطني الرقيق، ورشاقته وهو يرمي حمل كل رفش إلى جانب الطريق.. تأملت وجهه النحيل الذي بدا أسمر قاتماً.. وأحست بشوق جارف إليه وبألم اعتصر فؤادها.

قال وهو يعود إلى السيارة: «آسف.. أنا مبتل قليلاً».

ـ لا تقلق.

كان الباتش في حالة ممتازة بالرغم من تحطم شجرة السرو الكبيرة.. ونظر أليكس إلى الأغصان الملتوية القائمة، وقال: «أحضري أحداً ليلقي عليها نظرة قبل الليل».

ـ حاضر.

بقي معها حتى اطمأن إلى سلامتها، ثم وقف في الباب، ونظر إليها.. كانت عيناه باردتين، وفمه مشدوداً، وقسماته المنحوتة أكثر بروزاً. قال:

«وداعاً.. لكن عديني بشيء..».

ودّت أن تعده بالدنيا كلها، لكنها سألت: «بماذا؟».

ـ أن تستمري في محاولة العودة إلى الماء.

ـ أجل.. حسناً.

وأصغت إلى صوت تحطم قلبها.

ـ لقد شاهدت فيلم ڤيديو لبرنامجك الوثائقي.. وأنت مولودة لتكوني في الماء.. ولسوف تنجحين.. اسبحي من أجلي، وغوصي عبر ذلك الجدار الأزرق.

ابتلعت ريقها لتخفف ألم الدموع التي سدت حنجرتها، ثم هزت رأسها، واستدارت مبتعدة وهو يخرج من الباب.. اشتدت قبضتاها على حافة الشرفة حيث وقفت تنظر إلى البحيرة دون أن تراها، بينما دار محرك الرانج روڤر، وابتعد.

في سكون الأمسية الهادئة، شاهدت الأخبار، لا شيء عن أليريا، ولا شيء مرة أخرى في الصباح. أحست بخوف شديد، وأجبرت نفسها على ملء يومها بعمل لا معنى له، وإن لم تتذكر ما كانت تفعل. ذلك المساء، فتحت جهاز التلفزيون، وجلست متوترة تتابع الأخبار المحلية والعالمية.

ومع ذلك.. لا شيء. كانت تحاول إقناع نفسها بتحضير العشاء حين قال المذيع «بعد انقلاب أبيض، ودون سفك دماء، عاد أمير أليريا بعد طول غياب وتوّج في احتفال مؤثر».

جمدت لانث وهي تتأمل الحشود الغفيرة على الشاشة، ووسط الهرج والمرج المجنون.. رأته.. أليكس.. نقطة ارتكاز الزوبعة.. أليكس.. ذو الوجه الصارم الوسيم..

كان يلامس الأيدي المتشوقة الممدودة إليه، ويتكلم، ويسير عبر الجموع الهائجة الصائحة وحده.. وبقوة إرادته منعهم من أن يفقدوا السيطرة، ومن أن ينجرفوا إلى الفوضى.

مسحت لانث دموعها عن خديها، وأجبرت نفسها على التركيز على ما

يقوله المراسل.. كان يقول «.. نحو الكاتدرائية، حيث ينتظره رئيس الأساقفة ليتوجه»..

وتبدلت صورة الشعب الأليري الهاتف الهائج، لتظهر صورة ساحة تحيط بها الأشجار وفي مقدمتها كاتدرائية قديمة واجهتها من الرخام الأبيض.. كانت الساحة مليئة بأشخاص صامتين راكعين.. عكست وجوههم الرهبة والتبجيل والفرح.. وكان الكثير منهم يبكي.

ثم تعالت أصوات الأجراس..

وسمعت المراسل يقول: «لقد وصل إلى أليريا منذ ثلاث ساعات فقط.. وبمجرد وصوله، أوقف القتال.. وما أن عرفه الناس، حتى سارعوا به إلى الكاتدرائية ليتوّج.. بعض رجال الحكم قُتل، لكن يعتقد أن معظمهم قد هرب.. وخرج الجيش وقوى الشرطة لمساندة الأمير».

تلاشت الصورة عن الشاشة، وانتقل المذيع إلى خبر آخر.

وقفت لانث وأطفأت الجهاز.

لقد قالت له إنها تشعر بالأسف حيال الأسر المالكة.. وإنها تؤمن بأن حياتهم لا تطاق.. فهل كان هذا سبب قراره بألا يقيم علاقة معها؟

وتمنت لو أنها أبقت فمها مطبقاً.. إلا أن هذا ما كان ليشكل أي فرق.. فهي لم تغير رأيها.

وصرخت بصوت عالٍ «الأمير والفقير» فبدا لها صوتها غريباً.. لا.. الملك والمتسولة.. لكن أراهن أن علاقتهما لم تنجح بالرغم من الاسطورة.

فأي علاقة ناجحة تحتاج إلى أكثر من الانجذاب، وبالرغم من أن أليكس كان يريدها، إلا أنه لم يأتِ على ذكر الحب.

***

خلال الأيام التي تلت، أنهكت نفسها بالعمل..

كانت تعمل بشكل آلي وجنوني.. وكانت تتقدم في مياه البحيرة خطوة بعد خطوة.. وخلال الليل، كانت تنام نوماً ثقيلاً لشدة إرهاقها.

اعتقدت لانث أنها عرفت الحزن. ولقد بكت طويلاً كريغ.. وتحملت

الألم الجارح، والوحدة التي لم تتبدّد إلا على مضض.

لكن الأمر مختلف هذه المرة. وكانت تتساءل أحياناً عما إذا كانت ستجن.

لكنها رفضت الاستسلام.. فهي ليست مريضة! وخطر لها في صباح أحد الأيام، أنها.. مشتاقة للحب وحسب..

لقد آن لها أن تجمع شتات حياتها مجدداً، وتتابع مسيرها.. لكن عليها أولاً أن تفي بوعدها لأليكس.. لم تعد أحلام الأنياب والدماء والموت المزعجة توقظها من نومها صارخة، لكن الذعر لا زال يتملكها وهي تسير فوق الرمال...

شدت على فكها، وخاضت في الماء إلى أن أصبحت على بعد خطوة واحدة من الحدود ما بين المياه البيضاء، وتلك العميقة.

لقد قال لها: «إسبحي من أجلي.. غوصي عبر ذلك الجدار الأزرق..».

أخذت نفساً عميقاً.. وغطست إلى الأسفل، وتوغلت، وعيناها مفتوحتان، في قلب الماء الأزرق.. وما أن اخترقت الجدار حتى لبثت دون حراك أمام توهج الألوان، وأملت أن يغمرها مد المياه مجدداً.

شيء ما تحطم في داخلها فصعدت إلى سطح الماء وهي تبكي.. بهرتها الشمس والمياه، وأدركت أنها، على الأقل، خطت خطوة نحو الحياة، وإن كانت هذه الأخيرة قد تبدّلت..

***

٨ ـ أحتاج نهاية

ضرب بيل فين، الشهير بأفلامه الوثائقية عن الحياة البرية، بقبضته على ذراع مقعده، وقال:

ـ لانث.. إنها فرصة العمر.. لم تخضع البحيرة المركزية في أليريا لفحص علمي من قبل.. والآن بعد أن حصلنا على الإذن، لا يمكنك أن تقفي هنا متجهمة الوجه دون سبب، وتقولي إنك لا تريدين الذهاب!

مات صوت لانث في حنجرتها.. وابتلعت ريقها لتسأل بخشونة: «وهل اتصل بك؟».

ـ من؟

ملأ طعم الغبار اللاذع فم لانث.. وسمّرت نظرها على بلدة «روسل» الصغيرة الممتدة أمامها حتى الشاطىء، ثم قالت على مضض: «الأمير».

ـ أي أمير؟ أليكس كونسيدين؟ لا.. ولِمَ سيتصل؟ إنه مشغول جداً، ولن يزعج نفسه ببرامج تلفزيونية.. نحن مجرد وحدة إنتاج وثائقية متواضعة.. متواضعة جداً، ولسنا بالضرورة ضمن خططه، وحتى قبل أن يتبين أنه أمير أليريا المفقود، ما كان ليكترث لأمرنا.

كبحت لانث رداً ثائراً.. فأليكس ليس متكبراً.

خنقت كلمات بيل الأمل في مهده.. فشربت ما تبقى في فنجانها من القهوة، حتى تهدأ أعصابها، ثم سألت وهي تمد ساقها:

ـ لِمَ اخترتني أنا؟ ندبة الجرح تحسن مظهرها، لكنها لا زالت موجودة.

لم ينظر إلى ساقها، بل قال: «أنت المرأة الدلفين.. وقلة من الناس

تعرف عنها مثلك.. كما إنك أفضل مظهراً من أي شخص آخر».

ابتسمت ساخرة، وردت:

ـ يبدو لي هذا كلام بيل الذي أعرفه وأحبه.. لكن مستحيل.. فقد وجدت الممول المناسب لأبحاثي. وبدأت أخيراً أرى النتائج، ولا أريد الذهاب إلى أليريا.

ها قد نطقت بالكلمة.. وتردد صداها في رأسها، باردة، ومؤلمة.. فالتقطت أنفاسها، وأكملت: «لا بد من وجود شخص آخر تستطيع استخدامه».

قطب المنتج، وقال: «هيا يا لانث، يمكنك أن تجدي طالباً يحضر للتخرج ليكمل عنك عملك هنا.. ولن نغيب أكثر من شهرين.. بل أربعة أسابيع إذا سارت الأمور على ما يرام.. سيكون عملاً هاماً فعلاً، فلم تُجرَ أي دراسة على تلك الدلافين.. أعني أي دراسة علمية.. سنكسب جائزة «وايلد سكرين» مرة أخرى بفضل هذه السلسلة.. حدسي ينبئني بذلك».

قالت لانث بخفة، وهي تهز رأسها: «آسفة.. لماذا لا تدع الدلافين تتحدث عن نفسها دون تدخل البشر؟».

مال إلى الخلف، ثم قال عابساً: «لأنك تملكين صلة روحية معها.. هذا هو السبب، فهي تأتي إليك حين تناديها».

تجاهل تعليقها المرح المدهوش، وتابع: «اللعنة يا لانث.. لماذا أنت عنيدة هكذا؟ هل التهم القرش عقلك أيضاً؟ أليريا مجال جديد لنا».

تمتمت: «إنها مياه جديدة، في الواقع».

ضحك، واسترخى بشكل ظاهر، معلقاً.

ـ وأي مياه! بحيرة بطول خمسين ميلاً وعرض عشرين، مليئة بدلافين المياه العذبة.. اللعنة.. ولا أحد يعرف عددها.

أوه.. بيل يعرفها جيداً.. وودت لانث أن ترى هذه الدلافين بدورها.. لكنها لن تستطيع الذهاب. لا شك أن أليكس أعطى الإذن لفريق التصوير لاقتناعه بأنها لم تعد على علاقة به.. ولو ظهرت هناك لظنها

تلاحقه.. وجعلت هذه الفكرة عظامها ترجف.

أشارت إلى المياه الهادئة وقالت:

ـ بيل.. لدي من العمل ما قد يشغلني لسنوات.. وأنا أحب هذا المكان.. الناس رائعون هنا والدلافين متعاونة بشكل ملفت.

لمعت عيناه السوداوان، وهو يجيب:

ـ اسمعي.. هذه فرصة لنثبت أن جائزة «وايلد سكرين» لم تكن زائفة، ونيوزيلندا ذات سمعة مشرّفة في عالم الحياة البرية. لكن إن استطعنا النجاح في هذه السلسلة، سنصل إلى النجوم.

وقفت لانث على قدميها وتقدمت نحو السياج. لقد أجرت جراحة تجميلية لساقها، فاختفى أثر الندبة، كما خفّ عرجها، وإن كانت لن تسير بشكل سليم مجدداً.

على أي حال، العرج لا يهم في الماء.. ولم تعد المياه ترعبها، إذ تغلب شعورها بالبؤس بعد رحيل أليكس على مخاوفها كلها.

بعد تتويج أليكس بفترة قصيرة، اتصلت بها مؤسسة وعرضت عليها تمويل عملها في خليج الجزر.. وقبلت العرض دون تردد.. فقد أنقذها.. أنقذها من أفكارها وآلامها وأحزانها، فكسبت المعركة، وأحست بما يشبه السلام الداخلي.

والآن.. وبعد مضي اثني عشر شهراً، بدد بيل ذلك الهدوء الصعب.

ـ أنا حقاً لا..

ـ لانث.. لا ترفضي فوراً. فكري بالأمر قليلاً.

كان يعتبرها مجنونة لرفضها.. وبطريقة ما كانت كذلك.

استدارت، وقالت: «حسناً جداً.. سأفكر بالأمر».

ابتسم ساخراً، وأجاب: «دعيني أعرف ردّك غداً. وانسي ما قلته لك.. ما من أحد لا يستغنى عنه».

فابتسمت وعلّقت: «أعرف ذلك».

ـ لكن من المؤسف أن نخسرك... ولا تقصي شعرك!

دفعت لانث خصلات شعرها إلى الخلف بارتباك، وقالت: «أنا لم أوافق بعد».

لوّحت لبيل مودعة، وتوجهت إلى المنزل الذي استأجرته لمدة سنة.. منزل ريفي صغير قديم لكنه رخيص.. وهكذا استثمرت المال في شراء كومبيوتر.. جهاز يعمل على البرامج التي ينتجها أليكس.

وعادت إلى خاطرها ذكريات تقليدية أضيئت فيها الشموع..

خلال السنة المنصرمة، حاولت أن تتجاهل وجود أليريا.. ولم يكن الأمر صعباً للغاية.. فمنذ عودة الأمير المذهلة، لم يرد ذكر الدولة في وسائل الأعلام.. لكنها عرفت أنه بدأ بخطوات إصلاحية.

ولقد تجاوزته الآن.. ومهما كان ما شعرت به، فهو مجرد غرام عطلة، زاد الإحباط من قوته ورسخه في ذاكرتها.

وفكرت بقلق.. جاء أليكس إلى هنا ليتّخذ قراراً.. وأدرك أن لا مكان لها في حياته الجديدة.. وبسبب إحساسه بالمسؤولية، رفضها بالرغم من حبها الجلي له.

لا بد أنها ستشكره على ذلك في يوم ما.

ولعلها تحتاج إلى وداع نهائي.. وداع رمزي يجبر قلبها المشتاق على تقبّل النهاية، ويحررها من ذكراه التي لا تزال تسيطر عليها.. فقدر أليكس مخطوط من قبل أن يولد.. ولا مستقبل لهما معاً.

مررت إصبعها بخفة على لوحة مفاتيح الكومبيوتر.. من السخف أن تعتبر برامج الكمبيوتر صلة وصل بينهما.. لكن هذه الفكرة استحوذت على عقلها.

هل يجب أن تذهب إلى أليريا؟

لن تذهب، إن كان هناك أدنى فرصة لمصادفته مرة أخرى.. لكنه مشغول بحكم بلاده، ولن يزعج نفسه بمنتجي أفلام متجولين.

وستكون هذه الخاتمة.. قد لا تراه. لكنها سترى البلاد التي حضنت سلالته، والشعب الذي يجري دمه في عروقه، والحضارة التي أعطته القوة..

رحلة إلى اليريا قد تؤلمها، لكن الألم سيكون مختلفاً.. ألم يشفيها أخيراً من البؤس الذي لا زال يتملكها.

أجل.. ستذهب.

***

بعد ستة أسابيع وقبيل منتصف الليل، كانت تقف بارتباك إلى جانب حقيبتها في قاعة وصول أحد المطارات بعيداً عن موطنها، تنظر حولها علها ترى وجهاً مألوفاً.

ضغط الناس.. البعض ينتظر، والبعض الآخر في عناق محموم.. الدموع، الضحك والأصوات المرتفعة، كل هذا أرهقها.. نظرت حولها مجدداً ترمش بعينيها. تجاهلها معظم الناس، لكن نظرات أولئك الذين لاحظوها، جعلها تستنتج أن الشعر الأشقر نادر في اليريا..

لم يظهر أي من أفراد الطاقم، شعرت وكأنها ضيف غير مرغوب فيه، فانتظرت والحقائب قرب قدميها، إلى أن استقبل الجميع زوارهم، وغابت الأحاديث من حولها.

وأنبّت نفسها.. تماسكي.. فالطاقم يقيم في دار الضيافة في المدينة.. وفتشت في حقيبة يدها عن دفتر الملاحظات، وقلبت الصفحة حتى وصلت إلى حيث سجلت العنوان.. ستستقل سيارة أجرة.. وستحل المشكلة.

وفي الخارج ترددت.. فجأة، خرج رجل طويل القامة، يرتدي زياً رسمياً من سيارة ليموزين.. تقدم نحوها، وأخذ منها حقيبتها فهتفت بصوت منخفض، وقد تملكها الرعب: «لا بأس.. شكراً لك».

بدا أنه لا يفهم الإنكليزية.. لكنه ابتسم، ووضع حقائبها في الصندوق، وأشار إليها لتصعد في المقعد الخلفي.

كانت رائحة السجائر تفوح من السيارة.. فتراجعت إلى الوراء وهي تدعك أنفها.. قريباً جداً ستتمكن من الاستحمام، وسترتمي على الفراش لتنام.. على الأقل اثنتي عشرة ساعة.

اجتازت السيارة منطقة ريفية مظلمة، قبل أن تدخل المدينة.. وراحت

لانث تتأمل أنوار الشوارع التي انتهت أخيراً أمام جدار ضخم، ذي مدخل مقوس. مرت السيارة من تحته، وتجاوزت الحراس.

وأدركت مذهولة أن دار الضيافة جزء من قصر.. ثم استدارت السيارة وابتعدت عن المدخل الرسمي وحارسيه المسلحين.

حين توقفت السيارة، قرب باب واسع يحرسه مسلح واحد.. جلست لانث مستقيمة، متصلبة مصدومة.

هذا ليس قصراً.. إنه القصر الرسمي.

أليكس هنا.. وبدأت الإثارة التي استعرت في داخلها منذ قررت المجيء إلى أليريا بالظهور والتوهج، لتملأها بهجة غامرة مجنونة.

لكنها تنبهت في ما بعد، إلى أنها صعدت إلى السيارة دون أن يناديها أحد باسمها.. وها هي الآن تدخل القصر بخضوع، برفقة رجل نحيل متزمت، خرج ليستقبلها بانحناءة احترام رسمية.

قال وهو يدعوها لصعود السلم المنخفض: «من هنا سيدتي».

سارت لانث إلى جانبه آلياً، حتى وصلا إلى مصعد.

غمرها الإرهاق.. كأنها بطلة رواية من روايات ألف ليلة وليلة.

بعد حين، توقف المصعد. فعبرا ممراً آخر، مفروشاً بسجادة زرقاء وجدرانه مكسوة بألواح خشبية بيضاء.. وكانت الجدران مزينة بصور الأسلاف.. فلفتتها عيونهم التي تشبه عيني أليكس.. شاحبة مذهلة في وجه أشبه بقسمات الصقر.

قال الرجل: «سيدتي».

كان قد وقف وفتح لها باباً.. فتجاوزته لانث بامتنان وهي تقول: «شكراً لك».

أقفل الباب وراءه. ووجدت نفسها تقف وحيدة، تنظر حولها بغباء إلى الأثاث الأنيق المختار لغرفة استقبال تعود إلى القرن الثامن عشر.

ارتجفت لانث، ودعكت ذراعيها.. وقد عجزت عن التفكير.

تقدمت إلى النافذة، ومالت إلى الأمام تنظر إلى المدينة.. ها هي الجبال،

والبحيرة.. أم أنها تنظر إلى الميناء؟

إذا كان بإمكان شخص ما أن يدفع هذه الإمارة الفقيرة قدماً ويحقق فيها المعجزات، فهذا الشخص هو أليكس. وابتعدت عن النافذة متثائبة.

قفز قلبها بين ضلوعها.. إذ دخل أليكس من الباب. تردد قليلاً، وقد جمدت عيناه اللامعتان، وقسا فمه الجميل ليصبح خطاً مشدوداً، لكنه تابع طريقه ودخل.

قال: «ماذا تفعلين هنا بحق السماء؟».

تبددت آمالها.. وقالت بصوت أجش:

ـ أنا.. شخص ما جاء بي من المطار.. وأنا هنا لأصور أفلاماً وثائقية عن الدلافين، مع بيل فين، ظننت أنك تعرف.

ضاقت عيناه الزرقاوان وهما تتأملان وجهها: «أعرف».

من الواضح أنه لا يعرف أنها جزء من الفريق. أدركت أنها تبدو متعبة، فقد أفقدتها ثلاثون ساعة من الطيران أناقتها ونشاطها.

عدّلت من وقفتها، وقالت بلهجة حازمة: «حسناً.. أنا أعمل معهم من جديد.. أين هم؟».

ـ في دار الضيافة، يبدو أن هناك التباس.. لكن لا تقلقي.. بإمكانك أن تقضي الليل هنا.

ـ لا.. فأنا أفضل.. أعني.. لا بد أن مكانهم ليس بعيداً.

ـ لا يتوقعون وصولك الآن، والوقت متأخر وأنت مرهقة.

وشد حبل جرس طويل.

ودخل شاب أسمر وكأنما كان ينتظر استدعاءه.. وتكلم أليكس معه، فانحنى الخادم. بعد ذلك قال أليكس بالإنكليزية: «سيأخذك إلى إحدى الغرف، ويؤمن لك خادمة».

فردت بسرعة: «لست بحاجة إلى خادمة».

ضاقت العينان الباردتان، وقال بكياسة:

ـ بل تحتاجينها.. أنا آسف للإرباك. وأرجو أن تنامي جيداً الليلة.

صباح الغد، وحين تصبحين مستعدة، سيرافقونك إلى دار الضيافة.

هزت لانث رأسها، وقالت: «عمت مساء».

لم تلن نظرته، وهو يقول: «عمت مساء».

لحقت بالخادم إلى غرفة أخرى. وما إن انسحب حتى دخلت امرأة متوسطة العمر، حادة الوجه، سوداء الشعر، ساعدت لانث على ترتيب أغراضها.

وبعد أن استحمت، خلدت لانث إلى الفراش. واستسلمت لسلطان النوم بسرعة لفرط إرهاقها.

وبعد حين، استيقظت فجأة، وكأنما تلقت صفعة لتخرج من لا وعيها.. تملكها ذعر غير منطقي، دفعها من السرير نحو النافذة.. فتحت الستارة ونظرت إلى الفناء الأمامي المعتم. وفيما هي تتأمل الظلمة المخيمة، خرج رجل من المبنى.

وانقبض قلبها.. إنه أليكس.. صعد إلى السيارة التي غادرت فناء القصر وشقت طريقها نحو المدينة المظلمة.

حزن عظيم لا حدود له، اعتصر قلبها، وراحت تبكي بصمت وتشكي حزنها لسماء غريبة عنها.

أخيراً، استدارت مبتعدة، وهي تتألم من ضغط الدموع التي لم تذرفها، والتي كانت تحرق عينيها. غداً سترحل من هنا.. وسترتمي في أحضان العمل، مع فريق ألفته واعتادت عليه.

مع ذلك، وهي مع أليكس، لم يكن ذاك الأمان والألفة يعنيان لها شيئاً. للحظة، وإلى أن لاحظت ارتباعه لرؤيتها، كادت تصدق أنه لو أحبها لتخلت عن عالمها بكل سرور لتصبح جزءاً من عالمه.

لكنه لم يحتمل البقاء في القصر معها!

عادت لانث إلى السرير، واستقبلت نعمة الغيبوبة دون نوم.. غفت لفترات قصيرة، وأصغت إلى أصوات المكان المجهول وهي تتعلم المعنى الحقيقي للوحدة.

على أليكس أن يتبع قدره، وهي كذلك.. منذ التقيا، أوضح لها أن لا مستقبل لهما معاً. ربما، لو لم يكن الأمير المفقود.. لكن لا.. هذا مستحيل. المشكلة تكمن فيها، فهي ما كانت لتتناسب مع عالم الأثرياء..

ولأول مرة، اعترفت لانث أن ما أحست به بعد أن تركها، كان حزناً على أمر لم يكن موجوداً أبداً. فأحست أنها غبية.. كامرأة مسكينة.. لن تسمح لنفسها بأن تأمل أنه نظم هذه البعثة ليتمكن من رؤيتها مرة أخرى.. لأنها، وبهذه الطريقة، تعزز الهوس الخطير المعذب.

لو شاء لكتب إليها بدلاً من أن يتجاهل وجودها طوال سنة كاملة.

واستيقظت متأخرة.. وهي تشعر بتعب أكبر مما كانت عليه قبل أن تنام. وحيّتها خادمة تحمل صينية. كان برفقتها امرأة أخرى، متوسطة العمر، أنيقة نحيلة، ترتدي ثياباً عصرية. وجلست لانث في السرير مستقيمة.

قالت المرأة مبتسمة:

ـ مرحباً.. أنا سيرينا كونسيدين، والدة أليكس. وأنت لانث براون.. طلب مني أليكس أن أقابلك لأنني أتكلم الإنكليزية. أهلاً بك في أليريا. ليولا أحضرت لك الفطور.. بعد أن تتناوليه وتنهضي من السرير، سأوصلك إلى فريق التصوير الموجود، في دار الضيافة.

سألت لانث ببطء: «وكيف وصلت إلى هنا بحق السماء؟».

فردت والدة أليكس مبتسمة:

ـ أوه.. إنها غلطة سخيفة! لا تقلقي بشأنها. لسوء الحظ لن يكون الأمير هنا هذا الصباح، لكنه طلب مني أن أقول لك إنه سرّ باستضافتك، وإنه يأمل أن تكوني قد نمت جيداً.

كانت ابتسامة لانث مصطنعة. وبالرغم من أن صوتها كان أجشاً إثر النوم، إلا أنه لم يرتجف حين ردت: «شكراً لك.. لن أتأخر».

أحنت المرأة رأسها وابتسمت مرة أخرى. هذه المرة بدفء أكبر.. ووقفت تراقب ليولا وهي تضع الصينية بحذر على ركبتي لانث.

قالت سيرينا كونسيدين:

ـ إذا احتجت إلى أي شيء، اقرعي الجرس لاستدعاء ليولا. إنها الساعة التاسعة، لذا سأنتظرك في العاشرة والنصف لآخذك إلى دار الضيافة.

ـ شكراً لك.

وأملت لانث ألا تكون تعابير وجهها قد فضحت أساها.

أدركت أنها لن ترى أليكس مجدداً، لذا فمن الأفضل لها أن تخرج من القصر، وتنفذ العمل الذي جاءت من أجله، ثم تعود إلى ديارها وتنساه.

حين تعود إلى نيوزيلاندا سيتسنى لها الوقت لتتمنى لو أنها لم تقابل أليكس أبداً، أما فكرة ألا تكون قد عرفته، فهذا ما لا تحتمل التفكير به.

لقد تعلم قلبها المشاكس أن يحبه، وهو يعلم أنه حب لا فائدة منه.. وفتحت رغيف الخبز المستدير.. كان طعمه كالرماد في فمها، لكنها أجبرت نفسها على مضغه، وابتلاعه، وشربت القهوة اللذيذة.. إن بقيت تفكر في السنوات الحالكة التي تنتظرها فستجن.. لهذا ستصر على أسنانها وتعيش كل يوم بيومه.

استقبلها أعضاء الفريق بمحبة وراحوا يمازحونها حول ما أصروا على أنه توق منها إلى المركز الملكي.

قالت تحتج وهم يرافقونها إلى غرفة اجتماعات صغيرة، تتوسطها طاولة كبيرة:

ـ ظننتكم ستستقبلونني في المطار.

صبّ لها أحدهم فنجان قهوة، ودفعه إليها وهي تجلس.

وقال بيل: «كنا سنفعل لو جئت على الرحلة التي قلت إنك ستصلين على متنها، أي الليلة».

ـ كانت هذه الخطة الأصلية.. لكن الطائرة حطت في مكان ما، ولم استطع الحصول على مقعد إلى لندن اليوم، لذا اضطررت إلى المجيء قبل اليوم المحدد.. لكنني أرسلت رسالة بالفاكس لأبلغكم بالتغيير.

قال بيل بمرح: «لم تصل.. ولا تقلقي يا عزيزتي.. نعرف كم أنت

كفؤة، ولهذا حصلت على ليلة في قصر الأمير؟».

أخفت مشاعرها الجياشة بسؤال: «إذن، متى سنغادر إلى المخيم؟».

ـ لن نضطر للتخييم هذه المرة. فإن أحضان الجلالة تنتظرنا.. كوخ للصيد على شاطىء البحيرة، مع خدم وكل التسهيلات المتاحة لأمير. سنرحل غداً باكراً، وإن سهرنا حتى وقت متأخر بسبب حفل الاستقبال.

ـ أي حفل استقبال؟

رفع حاجبيه استغراباً للسؤال الحاد، وقال:

ـ حفل استقبال الأمير.. الليلة، وبالثياب الرسمية. لكن، قبل ذلك، سنعقد اجتماعاً لبحث التفاصيل، ثم نتفرق ليقوم كل منا بمهمة مختلفة.. أنتِ مثلاً لديك موعد في المتحف.

ـ عظيم.

لكن الرعب تملكها، فأخذت نفساً عميقاً وحاولت إظهار الحماسة التي كان يتوقعها.

سألت بتوتر: «أي نوع من حفلات الاستقبال؟ أريد أن أعرف أي ملابس أرتدي».

بدا بيل نافذ الصبر.

ـ أوه.. الشيء المعتاد.. يقول الأمير إنه حفل رسمي.. كما أنك تبدين رائعة مهما ارتديت، لذا ستكونين على ما يرام.. حركي أهدابك واتركي شعرك منسدلاً.. فالسكان هنا يحبون الشقراوات.

تملكها التوتر والقلق، ولكنها قالت ببرودة:

ـ هذا أمر معقول.. وإن كنت أعتقد أن لا أحد سيشك بنوايانا.

ـ حسناً.. هناك أسطورة مرتبطة بالدلافين. وهي شعار الأسرة المالكة.. والشعب قلق عليها بعض الشيء.

أشار برأسه إلى شعار فوق الباب بدا طلاءه الذهبي جديداً. أمواج زرقاء تحمل ثلاثة دلافين ذهبية، أحدها ينفخ في بوق، والآخر يمسك برمح، والثالث يحمل حورية بحر.

قال: «يجب أن نقنع الجميع بأننا لا ننوي أذيتها.. وهذا هو الأمر الوحيد المزعج.. أتعرفين.. كل شيء سار على ما يرام حتى الآن بحيث كاد الأمر يقلقني».

وتمكنت من رفع فنجان قهوتها إلى شفتيها أثناء الحديث. ففكرة رؤية أليكس مجدداً، وعلى الفور، أثارتها بشكل لا يحتمل، ورمت قلبها في بحر من اليأس.

أمامها النهار بأكمله لتعزز دفاعاتها.. وستتمكن من ذلك.. ستلقاه مجدداً وستبتسم.. وكأن شيئاً لم يكن.. لقد التقيا يوماً ليس كأمير مليونير ومقدمة برامج تلفزيونية علمية.. بل كشخصين انجذب أحدهما إلى الآخر.. هذا كل شيء.

صاح بيل معلقاً: «هاي.. لا تنامي الآن! لديك عمل تقومين به، دفع المسؤول عنا المتحف الوطني إلى جمع كافة الآثار الأدبية المتوفرة عن الدلافين، وستحتاجين إلى مترجم، وسيكون يومك طويلاً وشاقاً.. هل تريدين المزيد من القهوة؟».

ـ لا.. شكراً. لقد درست الآثار الأدبية العلمية.

ـ بالطبع درستها.. لكن هذه تتعلق أكثر بالحضارة والتقاليد..

وتذكرت تلك الاحتفالات الغريبة المحمومة في الكاتدرائية.

فقالت ببطء: «كان الجميع متعاوناً».

ـ أجل.. وهذا ما يجعل المكان مختلفاً عن بعض الأمكنة التي زرناها.. آه.. حسناً.. هيا الآن إلى العمل.. سيكون يومنا شاقاً.

* * *

٩ ـ ماذا يخفي الليل؟

كان بيل على حق.. أمضت نهارها مع أناس متشوقين للمساعدة، بحيث أرهقوها.. وأذهلها كم أن الدلافين في أليريا مرتبطة بالفن الشعبي وأساطيره بشكل حميم ومعقد.. وفي ظل ظروف مختلفة، كانت لانث لتستمتع بكل لحظة من يومها.

لكن، كان من الصعب عليها أن تركز، والناس متجمعة من حولها.

وبينما السيارة تتحرك صعوداً، عائدة من المتحف إلى دار الضيافة، طرحت لانث سؤالاً أو اثنين، عن الحياة في أليريا تحت الحكم السابق، فأجابت غراسيلا، المترجمة، وهي امرأة في أوائل الثلاثين من عمرها، على الأسئلة بلهفة طبيعية.

ـ أوه.. الأمر مختلف الآن! كانت الحالة من قبل ضبابية.. حياتنا كانت منظمة ومرسومة.. وحين انهارت الشيوعية، مرت بنا ثلاث سنوات رهيبة، لكن أميرنا عاد، وعاد عالمنا إلى الدوران بشكل طبيعي.

قالت لانث: «لا بد أنه يجد صعوبة في حكم بلد لا يعرف عنه سوى القليل».

هزت غراسيلا رأسها بقوة، وردت:

ـ لقد عاش هنا حتى بلغ العاشرة من عمره. وهذه هي أهم سنوات الطفولة.. لذا فهو يعرفنا جيداً!

ـ ولِمَ فعل الحكم السابق هذا؟ وهل عاقبهم الحكم الجديد؟

ـ أوه لا! ما كونوا يعرفون أن الأمير وزوجته في أليريا.. لقد اختار

الأمير إيڤان أن يبقى معنا بدلاً من أن يهرب.. ونظم مقاومة سرية، وقد لجأ العديد من مناوئي النظام إلى الجبال في إيطاليا مع الأمير وقد أحبه الناس، وحموه مع زوجته وابنه حين ولد.

قالت لانث ببطء: «لا بد أنه كان رجلاً شجاعاً».

ـ أمراؤنا شجعان دائماً! لكن، حين أصبح الأمير أليكسي في العاشرة، خانهم شخص ما.. فضحّى الأمير إيڤان بحياته لإنقاذ زوجته وابنه.. وهربا عبر الجبال في برد الشتاء، وشقا طريقهما سراً إلى أوستراليا.. حيث ظن الجميع أنهما إيطاليان. وعاشا في بلدة صغيرة في أوستراليا إلى أن التحق بالجامعة، ثم أصبح خبير كومبيوتر وجنى الكثير من المال، وهو يستخدمه الآن لمساعدتنا.. لكنه كان يعرف حقيقة هويته على الدوام. ولأنه رجل أعمال ناجح جداً، فهو يعرف كيف يحكم الناس.. ولأنه أميرنا فالناس تثق به.

أنهت كلامها ضاحكة:

ـ ولأنه وسيم جداً، نحبه كلنا.. وبالرغم من أن الوقت حان ليتزوج، ونريده أن يكون سعيداً، إلا أننا ننظر إلى المرشحات بعين الارتياب.. وحدها الأفضل تناسب أميرنا.

سألت لانث: «كم مرشحة هناك؟»

ـ هناك فتاة أرستقراطية جميلة جداً من انكلترا، قد تكون جيدة.. وأخرى فرنسية أنيقة جداً.. لكننا سمعنا شائعات عن أخريات.. نجمة سينما أو اثنتين، مضيفة طيران...

ابتسمت لانث ابتسامة مرغمة وقالت:

ـ أعتقد أن أي زوجة محتملة، يجب أن تكون أرستقراطية.

هزت المترجمة كتفيها، وردت: «لعل هذا أفضل، لأنهن اعتدن على نمط الحياة هذا.. لكن بالنسبة لي، أنا لا أهتم، آمل فقط أن يكون سعيداً ويرزق بالأولاد، ويبقى معنا».

دخلت السيارة إلى الفناء الأمامي لدار الضيافة.. فاستدارت المترجمة

نحو لانث، لتقول لها:

ـ كان هذا اليوم مثيراً للاهتمام، وأتمنى كل الحظ لك ولفيلمك. متى سيكون جاهزاً لنراه؟

ـ ليس قبل سنة على الأقل.

حين سيعرض الفيلم على التلفزيون هنا، ستكون قد عادت إلى نيوزيلاندا، مع حفنة من الذكريات.. ذكريات قليلة حزينة لحب غير مرغوب فيه.

وقبل أن تستسلم للكآبة راحت تشكر غراسيلا. فردت المرأة بإيماءة سريعة:

ـ هذا من دواعي سروري.. لقد تمتعت بيومي. والآن، هل حفظت الجمل بشكل صحيح؟ كرريها لنرى.

في وقت سابق من ذلك النهار، طلبت لانث منها أن تعلّمها بعض الجمل المتداولة المفيدة.. كالتحية، والرجاء، والشكر، والوداع، أنت لطيف جداً..

كتبت لها غراسيلا الجمل، وتدربت لانث عليها من وقت لآخر.. وراحت تكررها، وهي تقطب قليلاً وتبذل الجهد لإخراج الكلمات باللكنة الصحيحة.

قالت المترجمة بحرارة: «ممتاز! اللغة الاليرية ليست صعبة على من يريد أن يتعلمها لأنها لغة رومانسية..».

عندها، فتح السائق الباب، فقالت لانث بالأليرية، وهي تخرج:

ـ شكراً لك.. وليباركك الله أنت وأولادك.

صفقت غراسيلا بيديها، قائلة: «جيد جداً!».

وابتعدت بها السيارة.

استدارت لانث لترى الحارس الذي سارع لملاقاتها مبتسماً.. فقالت بالأليرية: «شكراً لك».

ودخلت دار الضيافة لتستعد لحفل الاستقبال.

وبعد ساعات من الاستعداد، نظرت إلى المرآة.. دخلت خادمة شابة لتسألها عما إذا كانت بحاجة للمساعدة، ومع أن لانث رفضت، إلا أن المرأة بقيت لترتب الغرفة بهدوء.. ولم تشعر لانث بالارتباك لوجودها وهي تجفف شعرها، وتتبرج.

حين أخرجت بذلتها العسلية اللون، دخلت الخادمة إلى الحمام، ولم تخرج منه إلا بعد أن ارتدت لانث التنورة والقميص، بألوانهما المتماوجة ما بين الذهبي والبرونزي.

ردت لانث دون مرح، على ابتسامة المرأة المقيّمة. كانت متوترة جداً، وشعرت وكأن أعصابها مشدودة تتأرجح كأسلاك في مهب الريح.. فبعد عشر دقائق، سترى أليكس مجدداً.

وضعت لانث لمسات من عطرها المفضل، على معصميها ووراء أذنيها.. وانتعلت حذاء برونزي اللون بكعبين منخفضين.. تمنت بغباء لو أنها تستطيع ارتداء كعبين عاليين.. وتمنت لو أنها لا تعرج.. ثم اختارت حقيبة مناسبة، إنما لونها أشد قتامة.

وعلقت الخادمة بالأليرية ثم أضافت مبتسمة: «أنيق!».

فردت لانث بالأليرية: «شكراً لك».

تهلل وجه المرأة، وقالت شيئاً آخر بلغتها، لكنها ضحكت حين هزت لانث رأسها وقالت: «لا.. أنا آسفة، هذا كل ما أعرفه بلغتكم».

هزت المرأة رأسها وهي لا تزال تبتسم وفتحت لها الباب.

بدا جلياً أن الخدم هنا مخصصون لدار الضيافة.. فبالرغم من الفخامة، لا شك أن المكان هنا مخصص للزوار الأقل شأناً.. أما الضيوف المهمون، فيقيمون على الأرجح في القصر.

إذن.. من اعتقدوها ليلة أمس؟ الأرستقراطية الفرنسية أم الإنكليزية؟

شعرت لانث بالغثيان.. ونزلت السلم بظهر مستقيم، وقلب يتخبط، حيث كان الطاقم ينتظرها..

صفّر أحدهم وهي تتقدم نحوهم، وقال بيل معلقاً:

ـ أتعرفين.. ليس من العدل أن تتمكن النساء من توضيب ملابسهن الجميلة أثناء السفر.

فقالت وهي تحاول إظهار مرحها: «نحن بحاجة لأن نكون مميزات».

قال: «حسن جداً.. دعونا نذهب. السيارة في الخارج».

احتجت لانث: «لكن القصر قريب جداً».

ـ أعتقد أنه ليس مناسباً أن نسير.. إنها الأصول كما تعلمين.

وهكذا مرت بهم السيارة من تحت المدخل المقوس قبل أن تصل إلى المدخل الرسمي.

في الداخل، اشتمت لانث رائحة.. لم تكن راحة عفنة أو كريهة.. لكن قديمة. ومع ارتفاع المصعد ببطء إلى الأعلى، نظرت أمامها مباشرة، وقد عجزت عن التركيز على الجو من حولها.. لا تستغرب أن يتأقلم أليكس مع هذه القلعة القديمة، مثلما كان متناغماً مع ذلك المنزل الأنيق العصري، قرب البحيرة.. فلا بد أن ثقته الراسخة بنفسه تسانده في أي موقف، وأي موقع.

أبقت رأسها مرفوعاً بكبرياء.. وبالرغم من أن الخوف والترقب وصلا إلى الذروة، إلا أنها بقيت حذرة ومتنبهة، وهي تسير بثبات إلى جانب بيل. لحقت بالخادم الذي يرتدي بذة رسمية، عبر باب يفضي إلى قاعة استقبال.. وعلى الفور لفتتها الألوان.. الأحمر القاني العميق، الأبيض المحاري الصارخ، وبعض الزخرفات الذهبية.. وأثاث فرنسي، ولوحات شخصية على الجدار تتخللها لوحات مناظر طبيعية.

تقدم أليكس ليستقبلهم، وقدم نفسه بطريقة لطيفة.. وبالرغم من ابتسامته، بقيت عيناه باردتين كالجليد، واستحالت قراءة مشاعره.

قال وهو يصافحها، وكأنهما غريبان:

ـ أهلاً بك في القصر مجدداً. وأنا آسف لأنني لم أكن هنا هذا الصباح لألقي عليك التحية.. لكن، أرجو أن تكوني قد قضيت ليلة جيدة، وأن تكون الترتيبات قد نجحت هذه المرة.

قالت: «لقد كانت ناجحة.. شكراً لك، سيدي».

وتراجعت إلى الوراء ليقدم له بيل بقية الطاقم.

كانت تعتقد أن لقاء أليكس سيكون أسوأ ما سيمر بها.. لكنها أخطأت. فقد كانت والدة أليكس برفقة امرأة شقراء الشعر، تبين أنها ابنة دوق إنكليزي.. وأدركت لانث على الفور، أنها المرأة التي اعتقدوا أنها هي.

كانت اللايدي صوفيا جميلة على الطريقة الإنكليزية الباردة، وبدا أنها تمت بالقربى للأسرة المالكة. وكانت لانث لترتاح لو تمكنت من كره هذه المرأة.. لكن هذا كان مستحيلاً.

واكتشفت لانث الغيرة اللاذعة. لهذا تنبهت لتصرفها.. فابتسمت كثيراً، شرحت للحضور عملها مع طاقم الفيلم. ومع تزايد الضيوف في القاعة نظرت حولها لترى أن الفريق مشغول بالتودد إلى الناس وعقد الصداقات، وهذا جزء من عملهم، فلا أحد يعرف متى يحتاجون إلى من يمهد الطريق لهم.. كما أن هذا يحرك الاهتمام العام، وهذا أمر جيد.

كانت لانث تمثل التألق بالنسبة لهم بحسب قول بيل، لأنها المرأة الوحيدة في الطاقم.

وأخذت تراقب بيل وهو يبتسم لعيني امرأة في أواسط العمر.. وأحست أنها رخيصة، ووضيعة بعض الشيء.

وفكرت بسخرية: «هذا أفضل من الكراهية الجامحة التي تشعر بها حين تفكر بأليكس مع امرأة أخرى، إذ يلوح وراء هذه الغيرة ألم أشد وأكثر بدائية.. إنه عذاب الخسارة والحرمان.. الإحساس بالخيانة والنقص.. وكأن شيئاً انتزع منها».

غبية.. كل هذا حصل حين وقع نظرها للمرة الأولى على أليكس، منذ أكثر من سنة. لقد غيّرتها هذه النظرة بشكل جذري، وبدأت تشك في أنها ستتمكن من أن تتغير مرة أخرى.

ـ هل استقر بك المقام؟

حتى صوته دوى في داخلها بقوة.. فقالت: «أجل، شكراً لك، يا سيدي».

واستدارت ببطء كي تستعيد سيطرتها على تعابير وجهها، وعلى عينيها، وتسارعت دقات قلبها.. تدفق الدم بقوة في شرايينها لمجرد أنها في الغرفة نفسها معه.

تأملها أليكس بعينين ثاقبتين باردتين.. وبدت ملامحه الأرستقراطية النحيلة قاسية.. وقال: «لا تستخدمي كلمة سيدي».

ـ أعتقد أن هذا هو البروتوكول.

لمعت عيناه، وارتسم طيف ابتسامة على شفتيه: «أنت استفزازية».

ـ آسفة.

أخفض رموشه ليخفي نظرة فاتنة، أذابت أوصالها، وقال:

ـ لا تأسفي.. أنا معجب بجرأتك.. لكن ليس هذا المكان ولا الزمان المناسبين.

وقبل أن تتاح لها فرصة الرد، أكمل: «وأنا آسف على الخطأ الذي حصل ليلة أمس».

كان بإمكانها أن تبتسم.. لكن الابتسام آلمها وحركة فمها المصطنعة كانت دون معنى.

ـ أوه.. فهمت أن السائق خلط بيني وبين اللايدي صوفيا.. وأرجو ألا تكون قد وصلت ولم تجد من ينتظرها.

ـ تمكنت من تدبر أمرها بنفسها.. لم تصل رسالتها التي تبلغنا فيها أنها لن تصل حتى صباح اليوم.

ـ إذن.. كل شيء على ما يرام..

ابتسم ساخراً: «أرجو ذلك».

فقالت باندفاع وعناد متهور: «يؤسفني أن يكون وجودي هنا قد دفعك للخروج من القصر ليلة أمس.. لم تكن بحاجة للخروج.. أو لاستبقائي هنا، بما أن دار الضيافة خارج أسوار القصر مباشرة».

قال ببرودة: «بدا عليك وكأنك ستقعين أرضاً.. وكان من الأفضل أن تبقي هنا. أما بالنسبة لخروجي.. فكان ضرورياً.. فإن علم أحد بأنني أمضيت الليل معك في القصر، لافترض الجميع أنك عشيقتي، صدقيني».

زحف الاحمرار إلى بشرتها بقوة.. وأرادت أن تسأله: وماذا عن اللايدي صوفيا الجميلة؟ أين تقيم؟ أم أن كونها أرستقراطية، ومرشحة للزواج، يضع حداً، وبشكل آلي، لأي شائعات؟

لكنها قالت بشيء من الحدة:

ـ إذن.. الحياة هنا أشبه بالعيش في وعاء للسمك الذهبي؟

فقال بصوت حريري: «أجل.. كما قلت تماماً».

ـ وكيف تستطيع أن تتحمّل؟

هز كتفيه، وبقي وجهه متحفظاً.

ـ حين قررت العودة، لم أكن أدرك أن أول خطوة لهم ستكون اختطافي من المطار وتنويجي.

ردت بذهول وبسرعة: «أعرف».

ـ كنت أظن فعلاً، أنني سأحضر لأرسي السلم، ثم أعود إلى عالمي.. ومع ذلك، فإن قراري بالعودة كان صعباً جداً.. إذ كانت حياتي مرضية جداً..

وتحولت ابتسامته إلى ابتسامة متحفظة ساخرة بامتياز:

ـ.. والعودة إلى أليريا كان آخر ما أريده. خاصة وأني لم أتمكن من أن أشرح لك ما أحاول أن أفعله.

ـ لا بد أنني كنت مزعجة!

شد على فكه وهو ينظر من فوقها، وقال بأدب: «أبداً».

أدارت لانث رأسها قليلاً لترى أنه كان ينظر إلى اللايدي صوفيا الجميلة الفاتنة.. وكاد الغضب الجامح يتفجر ليفضح أمرها، لكنها كبحته: «لن أشغلك عن واجباتك.. شكراً لك على تسهيل أمورنا.. كلنا شاكرون لك.. ونأمل أن تكون النتيجة منصفة لأليريا وكنوزها».

لمعت السخرية في عينيه القاسيتين، وهو يجيب:

ـ أوه.. أنا واثق من ذلك.. لم يعد عرجك واضحاً، وأعتقد أن أثر الجرح قد زال كذلك!

ـ لا.. بل سيبقى دائماً، لكن بيل يعتقد أنه غير مهم.

بقيت عيناه على وجهها، وقال:

ـ بالطبع لا يهم.. فأنت ذكية، وقادرة على جعل الأفكار المعقدة سهلة الفهم.. كما أنك جميلة بما يكفي لتأسري عدسة أي آلة تصوير.. ماذا فعلت خلال السنة الماضية، عدا العملية الجراحية لساقك؟

جفّ حلقها، وتجاوبت مع البسمة الخفيفة الحارقة في صوته، فأبعدت نظرها عنه بيأس.. ماذا يفعل بها بحق السماء.. أيعبث معها أمام المرأة التي قد تصبح زوجته؟

لكن من الفظاظة أن تستدير على عقبيها وتتركه، وإذا أهانته، قد تقضي على فرصة تصوير الدلافين.

لا، لن تهبط إلى هذا المستوى.. قالت وهي تستجمع هدوءها، وتنظر إليه بتحفظ:

ـ لقد تغلبت على خوفي من الماء.

ـ أدركت ذلك.. لأنك استعدت عملك.

ـ أوه.. لا.. هذا عمل مؤقت.. لقد عدت إلى خليج الجزر.. فبعد رحيلك، تلقيت عرضاً لتمويل أبحاثي لثلاث سنوات، هذا إذا كنت حريصة.

عقد حاجبيه السوداوين للحظة، وقال:

ـ حقاً.. ثلاث سنوات.. وماذا تحاولين أن تكتشفي حول الدلافين هناك؟

ـ أحاول معرفة علاقة الدلافين بغيرها.. وكيف تتصرف كمجتمع.

كان ردها متصلباً، لكن حين طرح مزيداً من الأسئلة استرخت قليلاً، بالرغم من أنها كانت لا تزال تشعر بأنه تغيّر.. ففي الليلة الماضية، بدا

بارداً، وعدائياً تقريباً.. أما الآن، فقد عاد كما كان منذ سنة أو أكثر.. جذاب رجولي، يهتم بها وبأفكارها وبعملها، وإن لم يكن كلياً.

ومع ذلك لا زال تأثير تلك اللحظة من الترقب المثير، حين نظر إلى فمها، واشتعلت عيناه، يبعث الرعشة في أعصابها..

كان القدوم إلى أليريا غلطة عمرها، وكان يجب أن ترفض.. فرؤية أليكس مجدداً دفعت بمشاعرها نحو الهاوية. وهي تشك في أن تتمكن من تهدئتها، وإسكاتها هذه المرة.

كل صدى، كل تغيير بسيط في صوته العميق يتردد في داخلها، ليزيد من مأساة أحاسيسها. ووجدت نفسها تتجاوب مع السحر الذي كان يلطف السلطة الجلية في صوته. وأسرت كلماته أذنيها، وأثرت فيها قسماته الجميلة بشكل قوي أوقعها في شراكه بطريقة سحرية بدائية قديمة، قدم وجود المرأة والرجل.

للحظة، كشف عن انجذاب رجولي، لكنه كبته بسرعة، لجرأته وتهوره.. وخرق شوقها إليه دفاعاتها كلها، إنما أدركت أن هذا لا يكفيها، فهي تحتاج إلى أكثر.

إنها تريد حبه.. وتملكها الذعر.. يا الله.. ماذا أفعل الآن؟

كانت تحدق إلى ربطة عنقه، لكنها رفعت نظرها إلى وجهه بالرغم منها.

توقف عن الكلام.. وللحظة ظنت أنها كشفت عما في نفسها.. لكن حين ارتفع حاجباه تساؤلاً، علمت بارتياح أنه لم يكتشف مكنونات فؤادها.

قال: «إذن.. أنت تظنين أن النظام الاجتماعي للدلافين هنا سيكون مشابهاً لما تعرفينه عنها».

ابتسمت لانث ابتسامة مشرقة، وأجابت: «يبدو لي هذا منطقياً».

وتقدم نحوهما رجل كان يقف بأدب.. فأحنى أليكس رأسه نحوه قليلاً وقال:

ـ أخشى أن أكون مضطراً لتركك الآن، أتمنى لك النجاح في عملك.

قالت بهدوء: «شكراً لك».

وراحت تأمل.. بماذا؟ نظرة أخيرة؟ ابتسامة مميزة؟ شيء ترضي به قلبها المتلهف، ويدل على أنها مميزة لديه؟

لكن هذا لم يحدث.. بالطبع.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة.. ابتسامة مريرة، وهي تتجه عبر الجموع إلى الزاوية حيث يقف بيل، الذي نظر إليها، وابتسم قليلاً ابتسامة ذات معنى.. وبالرغم من أنها كانت تكره أن يفترض أنها كانت تحاول إغواء أليكس، إلاّ أنّ قلبها المتألم تهلل قليلاً.

وقبيل منتصف الليل، فتحت لانث باب غرفة نومها الواسعة في دار الضيافة.. وبالرغم من الإسم الرسمي، لم يكن حفل الاستقبال رسمياً، لكن أليكس لا يحتاج إلى مثل هذه المظاهر لأن فتنته الطبيعية تغنيه عنها.

قالت لنفسها وهي تنظف وجهها وتفرك أسنانها: لقد انتهى الأسوأ فعلاً.. وما عليها سوى أن تعمل في الأسابيع القليلة القادمة، لتعود بسرعة إلى نيوزيلاندا وتعتني بأحلامها المسروقة بسلام.

ومرّ شريط الذكريات في ذهنها.. وكثرت الأفكار والصور، فجافاها النوم.. ومع حلول الظلام فوق أليريا، مات صوت المدينة.. واستلقت في سريرها، مفتوحة العينين متململة، وقد شوشت عقلها أفكار ما انفكت تنصب على الموضوع عينه.

أليكس، من الأسرة المالكة، ثري وله نفوذ. ومن المتوقع أن يتزوج زواجاً جيداً.. ووجود اللايدي صوفيا الأرستقراطية، التي ترعاها أمه جيداً، خير دليل على ذلك.

هل يخطط ليرضي رغباته بغرام سري؟ هل هذا ما تعنيه تلك النظرة الملتهبة في عينيه؟ لقد انجذب إليها في نيوزيلاندا، فهل يعتقد أن هذه الفرصة مؤاتية ليكمل ما لم يبدأه؟

أحست بالغثيان لهذه الفكرة التي راودتها، وقالت لنفسها: لا.. أنت تحمّلين نظرة واحدة أكثر مما تستحق.

استدارت إلى جانبها، وحاولت أن تسترخي، فأخذت تعد وتتنفس بعمق إلى أن عاودتها الأفكار المعذبة مجدداً.

لقد أحبت أليكس.. وهي تحبه الآن.. ولن تقيم أي علاقة سرية معه لأنها ستفسد حياتها ولن تستطيع إصلاحها فيما بعد.

تركت أخيراً الفراش، وسارت نحو النافذة. منذ التقت أليكس، أمضت الساعات تنظر إلى الخارج.. وكأنها امرأة سجنها ضعفها في برج.. ولزمها بعض الوقت لتكيّف ناظريها مع الظلمة.. ومن فوق الأسوار العالية رأت الأنوار مضاءة في ثلاث نوافذ دون ستائر.

أليكس؟

لا.. فكرت بغضب وهي توبّخ نفسها.. لا بد أنه ينام قرير العين، مع أو بدون اللايدي صوفيا.

وتساءلت بانقباض: إذا طلب منها أن تصبح عشيقته.. فماذا سيكون ردها؟

أغلقت الستائر بحدة، وعادت إلى سريرها، مصممة على أن تنام.

كانت تأمل أن تطوي رحلتها إلى أليريا صفحة الماضي، وأن تضع الأختام على تلك الأيام التي وقعت فيها فريسة جاذبية أليكس التي لا تقاوم.. وبدلاً من ذلك اتجهت، وبشكل محتم، نحو الخطر، إلى حقل المعركة المدمر، نحو الحب.

قال بيل يمازحها وهما على مائدة الفطور: «عيناك كعيني «الباندا» محاطتان بالسواد».

ـ أعرف.. لم أستطع أن أنام. لكن لا تقلق، سأنام الليلة دون حراك.

قال: «لعل السبب كثرة الإثارة. بدا أنك والأمير لديكما قواسم مشتركة».

ردت بصوت بارد ثابت: «تكلمنا عن الدلافين.. إنها مهمة جداً بالنسبة لشعبه».

هز رأسه: «إنها رمزهم.. ونحن لن نجرح أحاسيس أحد.. اقترح

علىّ بعض مستشاري الأمير، جولة سياحية.. لكن حين سألت أليكس كونسيدين، لم يلتزم بشيء».

مال المصور فوق الطاولة ليأخذ قطعة توست، وقال: «قد يعتقد المرء أنه يسعى جاهداً لجذب الناس إلى هنا.. وكلما كثر عدد السياح كلما كان أفضل.. فأليريا تبدو فقيرة جداً».

هز بيل كتفيه وقال: «هي كذلك فعلاً، وهو يريد أن يحولها إلى دولة مثالية، لكن حسب شروطه. أمام الأمير عمل شاق وضخم، وهو لم يصل إلى القمة في دنيا الكمبيوتر بالعناد أو التسرع.. لقد رأى أخطاء الحكام الآخرين، ولن يدعها تحدث في دولته الصغيرة».

ثم نظر إلى الجالسين حول الطاولة، وأكمل: «سنغادر بعد نصف ساعة، لذا كونوا مستعدين».

امتدت النصف ساعة إلى ما لا نهاية.. البقاء... القصر.. والتساؤل أين أمضت اللايدي صوفيا ليلتها.. كاد يدمر أعصاب لانث.. وكلما رفعت نظرها نحو القصر كانت تراه يرتسم أمام عينيها.. وفكرت في أنها ما أن تخرج من البلدة، حتى تنسى أوهامها.

كانت السيارات تنتظرهم في الفناء الخارجي.

قال بيل للانث وهما يخرجان من الباب: «هذا هو المرافق، سيمهد لنا الطريق، إذا جاز التعبير».

ما أن تترك المدينة، وتبتعد عن أليكس، وقصره المهيمن، حتى يخفّ هذا الألم، وتنشغل بعملية التصوير.. لكن هذا ما لم يحدث.

لقد انشغلت فعلاً.. فالبحث عن الدلافين وتصويرها أخذ كل وقتها واهتمامها.. بالرغم من أنها كانت أكثر جبناً من تلك التي اعتادت عليها، إلا أنها تمكنت من إقامة علاقة مع المجموعة، حتى اعتادت أكثر على المركب، وانجذبت لانث أكثر فأكثر إلى الغموض الذي يلف حياة الدلافين.. وسارت عملية التصوير بشكل جيد، مع بعض المحاولات الفاشلة، التي أثارت غضب بيل.

لكن، كمنت وراء سعادتها، ظلمة أشد حلكة، تتربص بها وبمشاعرها.

كانت أليريا في الربيع رائعة جداً.. فقد امتدت الألوان من الوادي إلى الجبال، لتخفي سحب الشتاء الرمادية.. وبدت البحيرة لامعة، وحدائق المنازل في القرية متألقة.

قال بيل: «إنه طقس رائع للتصوير».

ففكرت لانث في أنهم إذا ما أنهوا العمل بسرعة سيتمكنون من مغادرة البلاد بسرعة.. وستبتعد عن أليكس.

وكان الرجال يُقيمون في كوخ في قرية صيادين صغيرة، قرب شقة خصصت للانث.

قال لها لوتشيو: «لن تكوني وحيدة».

قالت له: «إنها جميلة».

وتمتعت بخلوتها، لكن أكثر ما أعجبها في الأمر جيرانها.. فكلما كانت تصعد إلى شقتها أو تنزل منها، كانت ترى شخصاً ما، المرأة أو الجدة المحنية الظهر، التي فقدت أسنانها كلها، أو ولدين صغيرين، في الفناء المليء بالزهور.

في البداية، كان الجميع خجولين.. لكن حين أخذت تحييهم راحوا يبتسمون لها، ويضحكون لمحاولتها التحدث بلغتهم.. ولم يترددوا في تصحيح لفظها. وأصروا على أن تتكلم إليهم بالأليرية لتتعلم لغتهم.

خلال العشاء ذكّرهم بيل بأن أليكس سيأتي معهم في اليوم التالي، وحذّرهم من أن الأمير يرغب في أن تكون الزيارة ودية.

أرادت لانث أن تهرب.. أن تختفي في ظلمة الليل، وألا تعود إلى الظهور إلاّ في نيوزيلاندا، لكنها وبخّت نفسها ساخرة.. وغادرت السرير، أنت جبانة تافهة، ملوعة بالحب، ومثيرة للشفقة! إكبري!

نظرت من نافذة غرفتها، وراحت تسخر من الصورة التي تخيلت فيها نفسها مسجونة في برج.. كان الظلام مخيماً، لكنها رأت أنواراً خافتة متفرقة

في الساحات.. وهبّ من حولها هواء عليل، عابق بعطر الزهور، برّد خديها الدافئين.

كان بإمكانها أن ترى البحيرة من موقعها.. ومالت إلى الأمام لترى ما يحرك سطح الماء الساكن.. لكنها لم تشعر بريح يلامس وجهها.. قد تكون الدلافين.. واستقامت لتتبيّن الأمر رغم عتمة الليل.

وبعد عشر دقائق، كانت تمر بهدوء قرب المبنى الحجري، تحت أشجار الساحة، وقوارب الصيد القابعة على الرمال.

وتذكرت بحيرة أخرى، أصغر من هذه، وأكملت طريقها مقطبة.. إنها تعاني من أزمة رومانسية.. لم تُتح لها الفرصة لتتعرف إلى أليكس جيداً.. لكن شخصيته كانت نافذة جداً، فاستسلمت لها، ووقعت في فخ الأيام الرائعة التي قضياها معاً.

إلا أنها لم تقع في حب أليكس الثري، صاحب السلطة، الأمير.. بل في حب الرجل، وهي تعرفه على حقيقته.. متسلط، متعجرف، شجاع وقوي، و.. عطوف وشريف. فهو لم يحاول إقامة علاقة معها، لأنه يعرف أن لا مكان لها في حياته. فهل قرر أن يخصص لها مكاناً؟ مكاناً سرّياً، بالطبع، بعيداً عن أعين الناس؟

وانفطر قلبها.. لا.. أعترف أنني أحبه، لكنني أستحق أكثر من هذا.

وجفلت حين أحست بحركة في المياه.. فتقدمت خطوة لتتأملها، وتلاحق التموجات التي تدل على وجود الدلافين.

وشعرت فجأة بشيء من الخوف حين لمحت حركة على الشاطىء. فاستدارت.. وعرفت على الفور الشخص الذي كان يسير نحوها بالرغم من الظلمة الحالكة.. انتظرت، وهي عاجزة عن تحمّل نبضات قلبها المتسارعة، وراحت تتذكر ليلة أخرى، وبحيرة أخرى، وعالماً بعيداً، ورجلاً ينتظرها خفية، كما يفعل الآن، تحت النجوم في الظلام.

همست: «أليكس».

ابتسم، فبانت أسنانه بيضاء لماعة: «أود أن أموت، وأنا أصغي إليك

تهمسين اسمي بهذه الطريقة».

سألته: «وأين اللايدي صوفيا؟».

- في انكلترا.. لقد ابتعدت عن القرية.. ألا تؤلمك ساقك؟

ابتلعت ريقها لتهدىء صوتها، ثم قالت:

- لا.. إنها على ما يرام.. حرصت على أن أكون بحالة جيدة قبل أن أعود إلى خليج الجزر، وقد تابعت التمارين.

رد وكأن شيئاً آخر يشغل تفكيره: «عظيم».

فكره مشغول بالطبع.. وها قد عدت تعلقين أهمية كبيرة على كل ما يقوله.

قطع حبل أفكارها بقوله:

- صوفيا ابنة صديق لي.. وحسب. جاءت إلى هنا لتقضي عطلة قصيرة لأن قلبها محطم.. و.. لا.. لم أحطمه أنا. ولقد قررت العودة لتواجه الأمور بدلاً من أن تتهرب منها.

وسألته بسرعة، وغيرة: «وماذا عن المرأة الفرنسية؟».

فقال بنفاد صبر: «مجرد شائعات. لانث، أنت تعرفين جيداً أن الناس يطلقون الشائعات.. وهذه إحدى سيئات الشهرة».

- وهل الأمر أكثر سوءاً الآن وأنت الأمير الحاكم؟

- معظم الشائعات لطيفة في أليريا.. وأنا لا أهتم ببقية العالم.

لا.. بالطبع لا.. فثقة أليكس بنفسه تمكنه من تجاهل الشكوك، والشائعات، والأكاذيب، التي تحيط بالأثرياء، فهو سيد في عالمه.

قال: «ما رأيك بأليريا وقد مرّ عليك شهر كامل فيها!».

فردت عليه بصدق: «لقد أحببتها، إنها بلاد جميلة. والشعب ودي جداً.. لقد تقبلوا وجودنا كلياً».

قال بصوت ازداد عمقاً: «كنت آمل أن تعجبك.. لانث.. انظري إليّ».

رفعت عينيها المتسعتين إليه.. ولمع نور النجوم الباهت فوق شعره

الأسود، وعلى قسمات وجهه . . فابتلعت غصة كبيرة في حلقها.

قال، بصوت حساس أجش:

ـ أعرف أن الوقت مبكر . . وكنت أنتظر انقضاء أسبوعين آخرين . . ولو لم نلتق هنا صدفة لانتظرت.

حسناً . . سيطلب منها أن تكون عشيقته، وضغطت بيدها على قلبها، وكأنما لتبقيه في مكانه.

أكمل: «لكنك حطمت حصوني، ولا أستطيع الانتظار أكثر».

ـ أليكس . . لا تقل هذا.

جاءت كلماتها مؤلمة قاسية باردة.

وساد الصمت . . ثم سأل بخشونة: «هل أنا مخطىء؟».

همست: «أرجوك».

أسكتها بلمسة على ذراعها، وأدارها نحوه . . فرأى على ضوء النجوم، الدموع تتلألأ في عينيها.

قال، والكلمات تخرج مخنوقة من حلقه:

ـ لانث . . رحمة بي . . لانث، حبيبتي الصغيرة . . لا تبكي . . كنت أعلم أن مجيئك الى هنا مغامرة، أدركت كم ستكرهين الحياة هنا . . لكنني كنت آمل . .

نظرت لانث إليه، وأحست بالهدوء في عينيه، ثم . . أدركت فجأة كم يبذل من الجهد ليسيطر على نفسه، ويحافظ على هدوئه، وفاض قلبها . . وكبتت شهقة بكاء عظيمة.

قال بصوت أجش وقسماته تزداد قسوة: «لا بأس عليك».

فقالت يائسة: «أنا أحبك كثيراً، ومستعدة لأن أعيش معك إلى الأبد . . لكن ألن يحتقرك شعبك لو اتخذت عشيقة؟».

فرد بشراسة وحدة: «لا أريدك أن تكوني عشيقتي! حين أتذكر كم قاومت وتعذبت كي لا أتصل بك، لأن هذا لن يكون عدلاً، لا سيما وأنا أعرف مشاعرك نحو الحياة التي يجب أن أعيشها . . ».

فجأة، فقد سيطرته على نفسه . . ولم تعد عيناه باردتين . . وقال بصوت منخفض:

ـ أحبك . . ولقد أحببتك منذ وقعت عيناي عليك . . وخلال نصف ساعة، نظرت إليك وتبدد العالم من حولي . . بطريقة ما، ودون أن تحاولي ذلك، وجدت لنفسك مكاناً في قلبي . . وقد حاولت، ومن أجل مصلحتك أن أبعدك عني، فلم أتمكن من ذلك. لانث، في آخر يوم لنا معاً في نيوزيلاندا، قلت إننا لا نعرف بعضنا جيداً . .

قالت وكأنها توبخ نفسها: «كنت أحاول أن أقنع نفسي».

ـ وهل لا زلت تعتقدين ذلك؟

ـ لا . . أشعر وكأنني كنت أنتظرك طوال حياتي.

وقف مستقيماً، وكأنه يشدد عزيمته . . ورفع رأسه الأسود المتعجرف، لكن صوته لم يكن سوياً:

ـ وأنا كذلك . . لانث، هل تمنحيني شرف أن تصبحي زوجتي؟ أعرف أنك ستجدين الحياة هنا صعبة . . .

أخيراً بدأت تصدق ما تسمعه، فردت بحرارة:

ـ أوه . . أليكس . . بالطبع سأتزوجك! وأنا أحب أليريا. لكن، حتى وإن لم أحبها، سأكون معك، وهذا كل ما أريده.

أرجع رأسه إلى الوراء وضحك، ثم أطبق ذراعيه حولها كقضبان حديد، وعانقها بحرارة وشوق.

***

١٠ ـ الحب هو أن تختار

ظنت لانث أن العالم قد توقف عن الدوران، وأن النجوم تتأرجح بجنون، والجبال تميد من حولها.. ثم سمعت صوت حركة في ماء البحيرة، انتشلتها من أحاسيسها المرتبكة.

رفع أليكس رأسه، واستدارا معاً.. وهناك، شاهدا مجموعة الدلافين التي كانت تسعى لعقد صداقة معهما.. مرت من أمامهما ثم استدارت وسبحت عائدة قبل أن تختفي في عتمة الليل.

قالت لانث وهي ترتجف، مصدومة: «اعتقدت أنني رأيتها من قبل من نافذة غرفتي.. ولهذا جئت إلى هنا».

ـ وأنا رأيتها أيضاً.. أتظنين أنها تلعب دور الخاطبة؟ أظنها أعطتنا موافقتها.. ألا تعتقدين ذلك؟

قالت بحياء: «أعتقد هذا.. وما الذي سيحدث الآن؟».

قال: «سأعيدك إلى القرية.. هل هناك برنامج محدد للتصوير؟».

هزت رأسها، وقالت: «كنا نتوقع حضورك غداً. هل ستبقى هنا؟».

ابتسم وأمسك بيديها بخفة.. وانتظرته ليتكلم بمزيج من الفرح والارتياح والرغبة.

قال: «الدي قيلا قريبة من هنا.. ولم أستطع النوم.. وخيّل إلي بغباء، أنك تناديني.. فجئت إلى هنا وجلست على صخرة أفكر أنك هناك، وأن أحد هذه الأنوار يشعّ من غرفتك.. وغداً سأراك.. وفجأة، رأيتك كأفروديت تتقدمين نحوي فوق الرمال».

ضحك ساخراً: «توقعت أن تنمو الورود تحت قدميك، أو البنفسج الذي تحملين اسمه».

ـ كنت أشعر وكأني ميتة.

سألها بلهفة: «لا بد أنك كنت تعرفين أنني أحبك».

ـ لا.. بل عرفت أنك تشعر بميل نحوي.

ـ إذن.. اعتقدت أنني جئت بك إلى هنا لتكوني عشيقتي.

ـ جئت بي إلى هنا؟

فسألها بسخرية وتسلية:

ـ أولم تعرفي هذا؟ ولماذا برأيك طلبت من شخص أثق به أن يتصل بشركة الإنتاج ويقترح عليها الاهتمام بمسألة الدلافين؟

ـ لم أكن أعرف.. لم يقل لي بيل هذا!

ـ لم يكن يعرف، ولعله ارتاب بالأمر بعد وصولك إلى هنا.. كنت كتوماً جداً. لكن، كان عليّ أن أراك مجدداً، وبدت لي هذه أفضل طريقة.

سألته: «وهل أجبرته على اختياري لتقديم الفيلم الوثائقي؟».

وحاولت جذب يدها من يده، لكن أصابعه شدّت عليها، وقال بصوت جعله السخط خشناً: «أنا لم أظهر في المفاوضات أبداً».

كانت سعيدة منذ لحظات، ولا زالت، إنما قالت له: «هذا نوع من المراوغة».

حين عرفت أنها لم تأتي إلى أليريا بسبب مواهبها وقدراتها، أحست بغصة أسى وحزن..

ـ لم تكن بحاجة إلى هذا كله، فلو طلبت مني المجيء، لفعلت.. لكن يبدو أنك لا تحسب لي حساباً.

أمرها بعناد: «توقفي عن هذا».

واحتوى جسمها المتصلب المقاوم بين ذراعيه، وقال بتصميم شديد:

ـ أنت متكبرة جداً يا لانث.. أصغي إلي. لقد اقترح بيل اسمك.. وأخبرني مساعدي الكتوم أنه قال إنك الشخص الوحيد الذي يقترح

استخدامه لأنك محترفة.. ولأنك على علاقة وثيقة بالدلافين. فلمَ لست متأكدة من قدراتك؟

ـ أنا لست كذلك.. فأنا عالمة جيدة..

هزها قليلاً، وقال:

ـ أنت لست عالمة جيدة وحسب.. بل أنت جميلة بشكل يحرك القلوب. أنت لطيفة ومتعقلة وذكية جداً، وابتسامتك تخطف الألباب، وضحكتك تعتصر قلبي وصوتك يثير فيّ أحاسيس لن أعترف بها كرجل.. لماذا لا تتقبلين هذا؟ لقد أثر عليك والدك حقاً.. أليس كذلك؟

تمتمت وقد أذهلها بعد نظره: «حسناً جداً.. حين تركنا أبي، اختلطت مشاعري.. لكنني كبرت».

ضمها إليه بقوة أكبر.. فتدفقت الحرارة في شرايينها.

قال: «أظن أن هناك فتاة صغيرة في داخلك لا تزال تعتقد أن والدها تركها بسبب غلطة ارتكبتها».

أزعجتها دقة تحليله.. هل سيتمكن دوماً من قراءة مكنوناتها بهذا الوضوح، وهذه السهولة؟ ورفعت نظرها لترى الحب في عينيه، وهدأ ذلك الجزء المضطرب في نفسها.. نعم.. يمكنها أن تثق فيه.. قالت:

ـ كما أنّ هناك صبي صغير في داخلك لا يزال يؤمن بأن الواجب والمسؤولية هما أهم شيء في الحياة؟

التوى فمه بابتسامة سريعة، وأجاب: «تعادلنا».

ـ وإذا ما قررت ألا آتي مع الفريق؟

ـ فكرت في أن أخطفك.

واشتد ضغط يده على ظهرها.

فضحكت ضحكة مصدومة: «كل ما كان عليك أن تفعله هو أن تطلب!».

ـ أوه.. لكنني لم أكن أعرف هذا!

وتلاشى غضبها، وقبلت خده وهي تتنشق عطره الرجولي الرقيق.

ـ أيعقل ألاّ تعرف.. لا بد أنك اكتشفت مشاعري نحوك.. كنت تعرف قبل أن تغادر نيوزيلاندا..

وداعب النسيم الناعم خصلة شعر على وجهها، فدفع بها خلف أذنها.. وبهدوء، وثبات كاد يخيفها، قال:

ـ عرفت أنك تجدينني جذاباً، وفي البداية ظننت أن هذا كل شيء.. وحاولت جاهداً أن أقتنع بأن ما أشعر به نحوك هو مجرد انجذاب جامح.. لكنني ابتعدت عنك لبضعة أيام، وأدركت مدى خطئي.

هزت رأسها وتنهدت: «أعرف.. وأنا كذلك».

شدها إليه أكثر، بحيث شهقت. فأراح ذقنه على رأسها.. وقال بتردد:

ـ بعد مرور حوالى الأسبوع على وصولي إلى أليريا، قررت أن أعطي نفسي مهلة سنة لأرتب الأمور هنا.. ثم أطلب منك المجيء. أردتك أن تشاهدي أليريا، وأن تفهمي طريقة العيش هنا، قبل أن تختاري.. وكي لا أحرجك، فكرت أن أفضل طريقة هي استخدام الدلافين.

قالت ممازحة: «أيها المنافق».

ـ لقد كانت سنة من أطول سنوات عمري وأصعبها.. فقد أدركت أنني أحبك، لكن لم أكن أعرف كنه مشاعرك.. ويجب أن أعترف أن تصرفاتك حين وصلت شجعتني. كنت متصلبة، ورسمية جداً. وكان الشرر يتطاير من عينيك الذهبيتين كلما نظرت إلى صوفيا المسكينة!

قالت بلهجة حزينة: «شعرت ببؤس شديد».

ـ أكره أن أراك غاضبة.. إذن، هل تعتقدين أنك قد تعيشين سعيدة هنا؟

قالت باقتناع تام: «يمكنني أن أكون سعيدة أينما كان معك».

ـ حسناً.. سنعيش في هذه البلاد لما تبقى من عمرنا، إلا إذا قرر الشعب أنه يريد نموذجاً آخر من الحكم. لقد كانت بدايتك جيدة.. سمعت أنك أصبحت تفهمين اللغة.

- تقريباً!

- لم يقولوا لي هذا. وتتكلمين بلكنة ساحرة، وقد أحبك القرويين.

ابتسمت ورأسها على كتفه، ثم قالت: «لديك جاسوس.. لوتشيو!».

فرد باقتضاب: «ليس جاسوساً.. كنتم بحاجة إلى من يتفاهم مع القرويين.. وأردت أن أتأكد من أن التصوير يسير على ما يرام.. كما أردت أن أعرف ما إذا كنت سعيدة».

رفع ذقنها، ونظر إليها بشغف واضح جعلها ترتجف.

قال: «لقد أملت أن تحبي الناس هنا».

وأن يعجبوا بي؟ لكنها لم تعبّر عن أفكارها، بل خفضت نظرها وقبلت أصابعه.

وأضاف بصوت عميق متهدج: «كنت أعرف أنهم سيعجبون بك..».

قبل جبينها بحنان فتأكدت من أن الحواجز التي كانت تفصل بينهما قد سقطت أخيراً.. لكن، وبالرغم من أنه جرّها إلى عالم الأحاسيس العسلية العطرة، إلا أنها أحست أنّ أمراً ما يكدره.. واعتقدت أنها تعرف السبب.

وحين نظر إليها، وأبعدها عنه على مضض قالت:

- أليكس.. لقد قلت لك أني أكره الحياة العلنية، لكنني لم أكن أعرف أنها ستكون حياتك.. حبي لك شكّل الفارق، ولسوف أعتاد على هذه الحياة.. لكنني لن أعتاد أبداً على العيش من دونك.

ارتجفت عضلة في فكه.. وأمسك بيدها وسارا معاً على الرمال، عائدين إلى القرية.. وبعد لحظة قال:

- تبيّن لي خلال السنة الماضية أن حياتي من دونك باردة مخيفة.. لكن، يجب أن أعترف لك أكثر.. حين غادرت نيوزيلاندا.. كان عليّ أن أتأكد من أنك بخير وسعيدة.

فجأة، أدركت ما يعنيه، فسألته: «لهذا وفّرت لي التمويل اللازم؟».

استحال صوته قاسياً، وهو يقول:

- أجل.. كنت مضطراً يا حبي.. أردتك أن تكوني سعيدة. كنت متأكداً من أنك ستتغلبين على خوفك من الماء، وعرفت أنك سترغبين في العودة إلى الدلافين.. لذا رتبت أمر المال لك.

كان يجب أن تغضب، لكنها قالت: «ارتبت بالأمر، وسأسامحك.. لكن هل تعرف أنني أتوقع منك أن ترعى من سيأخذ مكاني هناك؟ في الواقع لدي فكرة عمن ستكون.. الطالبة التي حلت مكاني تحب الدلافين مثلي، والدلافين تحبها كثيراً».

توقفا.. وقال بصوت خشن: «طبعاً سأفعل.. إفعلي ما تشائينه، فكل ما أملكه لا يساوي شيئاً إذا لم أستطع أن أجعلك سعيدة».

سألته: «إذن، هل سنعود إلى القرية؟».

شدّ يده على يدها.. وقال بصراحة:

- حبيبتي.. أود أن أبقى معك، إلاّ أننا لا نستطيع ذلك.. سنعلن خطوبتنا حين ينتهي تصوير الفيلم، ونتزوج بعد شهرين.. ولسوء الحظ، نحتاج لهذا الوقت للتحضير للعرس.. وحتى ذلك الحين يجب أن تقيمي مع أمي.. فهي تريد أن تأخذك تحت جناحها، وتعلمك بعض الأمور.. البروتوكول.. التصرف في البلاط.. لن تبقي وحيدة.

قبّل راحة يدها، فقالت خجلة: «أوه.. ظننت..».

ضحك، إنما دون مرح:

- الأليريون شعب تقليدي، وسمعتك مهمة. ولهذا السبب تركت القصر حين وصلت في أول ليلة.

***

قرعت الأجراس في القرية كلها ابتهاجاً، ودون تناغم، لتعلن فرح الأليريين بالزفاف والتتويج.. فبعد إعلان زواجهما توّج رئيس الأساقفة لانث بتاج فضي أثري التصميم، بدت معه وكأنها صورة لأيقونة.

ثم جن جنون الأجراس، وعبر أبواب الكاتدرائية المفتوحة سمعت الهتاف المتصاعد، فلمعت عيناها.

أمسك أليكس يدها وضغط عليها.. فردت حركته بامتنان.. وأخذ رعبها يتلاشى كالغيم في يوم صيفي.

وسارا معاً في الممر بين مقاعد الكنيسة، ثم صعدا السلم إلى الخارج.. وتعالى الهتاف، وهما يبرزان إلى أشعة الشمس.. وكانت الأرض قد فرشت بسجادة من غصون الصنوبر لتشكل ممراً لهما نحو العربة المفتوحة.. وتصاعدت رائحتها الزكية العطرة تستقبلهما، فتذكرت لانث أشجار الصنوبر حول البحيرة في نيوزيلاندا.

قال أليكس بعد أن استقرا في العربة: «هذا تقليد ليبقى زواجنا أخضر على الدوام».

واحتفظت بهذه الفكرة طوال الطريق المؤدي إلى القصر، وخلال الاحتفال الرسمي..

وانتهى الأمر.. أخيراً، سيصبحان وحيدين.. هي وأليكس... قالت لوالدة أليكس، بلغتها الأليرية المتعثرة: «هل أذهب الآن؟».

ـ أجل.. لقد حان الوقت.

وابتسمت لزوجة أبيها التي سألتها أن تصعد وتساعدها على ارتداء ثيابها.. ووافقت لانث بدهشة لكن بسرور..

كانت الخادمة في انتظارها.. وقالت والدة أليكس: «كان الفرح عظيماً يا لانث».

وعادت إلى ضيوفها.

كانتا قد تعرفتا إلى بعضهما جيداً في الشهرين المنصرمين. وأخفت سيرينا كونسيدين قسوتها الداخلية تحت غطاء أنيق أرستقراطي.. ولا بد أنها تساءلت عن سبب إصرار ابنها على الزواج من فتاة مجهولة، لكنها لم تظهر للانث أي نفور أو قلق.

وفي الغرفة التي ستتشاركها قريباً مع أليكس، قامت زوجة أبيها والخادمة بمساعدتها على خلع ثوب العرس الضيق الأنيق، كان الثوب مصنوعاً من الحرير العاجي اللون الذي أبرز بساطة طرحة الدانتيل القديمة

التي اختارتها.

وللسفر، اختارت بذلة بلون النحاس الصافي زادت من بروز لون شعرها. وكانت تتأمل صورتها في المرآة حين قرع أحدهم الباب.

قالت زوجة أبيها وهي تقبل خدها: «تبدين رائعة.. كوني سعيدة يا لانث.. كما كنت أنا سعيدة مع والدك».

فتحت الخادمة الباب.. وأطل أليكس ليسأل: «جاهزة؟».

تقدّمت لانث تلاقيه مبتسمة، وقالت: «نعم جاهزة».

استقرت عيناه للحظة على فمها، ثم قال: «لقد انتهى الأسوأ.. بضع دقائق أخرى فقط».

نزلا السلم معاً، وتدفق الضيوف إلى ردهة القصر، وتعالت الدعوات والتمنيات الطيبة، ونثر أوراق الورد والملبس.. ثم صعدا إلى السيارة التي شقت طريقها عبر شوارع ازدحم فيها أفراد الشعب، بوجوههم المتوردة المتهللة، وسواعدهم الملوحة.

قال أليكس حين وصلا إلى مشارف المدينة:

ـ سنبدل السيارة عند كوخ للصيد في مكان ليس ببعيد من هنا.. وسأقودها أنا.

قررا أن يقضيا شهر العسل في أليريا، لكن أليكس رفض أن يحدد وجهتهما، واكتفى بالقول بأنها ستكون عطلة عفوية جداً.

امتدت الطريق حول البحيرة بضع كيلو مترات قبل أن ترتفع عند سفح هضبة، لتشق بعدها وادياً صغيراً.. كان أحد الجانبين مغطى بأشجار كثيفة.. ونحو هذه الأشجار اتجهت السيارة، تاركة أشعة الشمس البراقة وراءها لتلج عتمة زكية الرائحة.

كان كوخ الصيد ثيلا رائعة مشيّدة على هضبة تصب الشمس أشعتها البهية على كل جوانبه، ووقفت السيارة عند أسفل الدرج.

لم يخرج أحد لملاقاتهما حين توقفت السيارة.. بل غادر السائق السيارة مبتسماً مشجعاً لانث، وهو يفتح لها الباب.. تسارعت نبضات قلبها،

وانتظرت وهي تنظر بإعجاب إلى السلم الذي يؤدي إلى الأبواب الخشبية الواسعة.. فيما قام السائق بنقل أمتعتها من سيارة إلى أخرى.

وأخيراً أصبحا وحيدين.

سألته لانث وهما يبتعدان عن كوخ الصيد: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

- إلى مكان مميز جداً.

حتى تلك اللحظة، لم يلمسها أليكس. أما الآن فقد أمسك بيدها وقبّل باطن معصمها. وقال بهدوء:

- إلى مكان قريب من حيث أمضيت أول عشر سنوات من حياتي..

- ظننت هذا المكان قرب البحيرة.

- ليس هذه البحيرة.. بحيرتي أصغر بكثير.

- لا زلت أجد صعوبة في أن أصدق أنك عشت هنا عشر سنوات دون أن يفتضح أمرك.

- حين استولى الشيوعيون على الحكم، كان أبي وأمي قد تزوجا حديثاً، ويمضيان عطلتهما حيث نحن ذاهبان. ولم يستطيعا مغادرة البلاد.. حتى وإن عبرا الجبال، وذلك بسبب حرب العصابات.. كما لم يخطر لهما ذلك على أي حال، لأن والدي كان يعتقد أنه لا يحق له أن يترك شعبه.. لهذا بقي هنا، ولم ترضَ أمي بأن تتركه، فولدت أنا.

لا عجب إذن في أن يحب الأليريون والدته.

- ثم وشى بكم أحدهم؟

هز رأسه، وأجاب: «وشى بنا أحدهم. لكننا تلقينا تحذيراً بأنهم آتون للقبض علينا.. وأدرك والدي أن لا أمل لنا بالهرب دون محاولة تضليل.. ولم يقبل بأن يتولى السكان المحليون هذه المهمة.. فقد كان لهم أقارب رهائن.. لذا جعل من نفسه طعماً ليعطيني وأمي فرصة الفرار عبر الجبال إلى إيطاليا».

- ولم تعرفا أبداً ما حصل له.

- بل أعرف.. لقد ألقي القبض عليه وقتل، مع ما يقارب الخمسين

قروياً.

وصدرت عن لانث تنهيدة أسى.. فقال مكملاً كلامه باكتئاب: «حصل هذا منذ زمن بعيد.. لكنه كان أحد الأسباب الرئيسية التي دفعتني إلى العودة.. حتى وأنا أعرف أنني أتخلى عن فرصة الزواج منك.. لم أستطع أن أتخلى عنهم مجدداً.. لقد بقوا على إيمانهم بنا. وأحسست أنني أدين بذلك لذكرى أبي».

ولن يكون الرجل الذي أحبته إن اختار الطريق السهل، قالت: «أفهمك».

وفيما راح يقود السيارة عبر الحقول المزروعة والأحراج، تحدثا عن التغييرات التي ينوي أليكس القيام بها، ولا سيما شبكة النقل..

أخيراً مرا بدرب تتلوى بين جبلين، ومن الأعلى، شاهدت لانث بحيرة أخرى، صغيرة، رائعة الجمال.. وتحوّلت الطريق إلى درب ضيق انحدر نزولاً بين غابات كثيفة إلى أحد جوانب البحيرة.

كان المنزل واسعاً وحديثاً، أضيفت إليه لمسة محلية ليتناسب مع محيطه.. وما أن سارت فوق أرضه المبلطة، وخرجت إلى الشرفة، حتى اكتشفت هدف أليكس.

قالت تهمس بتنهيدة: «أوه.. أليكس!».

رأت أمامها، وفي موقع يطل على مياه البحيرة، مقعداً عريضاً من الخيزران، مفروشاً بأرائك بيضاء، تحت ظليلة من عرائش العنب.

قال من خلفها: «أردتك أن تكوني في مكان يذكرك بنيوزيلاندا.. وستتمكن من المجيء إلى هنا غالباً، وسيكون مكاناً مناسباً لأولادنا».

فرددت: «أوه أليكس».

وقاومت الدموع المحرقة في عينيها.

قال: «لقد تخليت عن الكثير».

فهزت رأسها نفياً، وأجابت: «أنا لم أتخلَ عن شيء، بل كسبت الكثير.. وجلّ ما أريده هو أنت».

وبالرغم من أن لمسة يديه على كتفيها كانت رقيقة، إلا إنها أحست بالقوة العظيمة التي يضبطها ويكبحها.

قبلت إحدى يديه، ثم الأخرى، قبل أن تستدير.. وتخبط قلبها بين ضلوعها.. لم تشعر بالخوف أو بالترقب، وهي تنظر إلى عينيه اللامعتين.. أما هو فضحك بصوت عميق، ودفن رأسه في عنقها، وأطال العناق حتى اشتعلت نيران حبها، وأتت على حواسها.

رفعت لانث وجهها، فداعبت رائحته الحارة الخفيفة حواسها، وحولت مشاعرها إلى سيل جارف.

وقف جامداً، ثم أخذ نفساً عميقاً وعانقها بشغف جعل رأسها يدور.. نعم هذا ما أرادته.. أوه.. أجل.. هذا ما كانت تنتظره.

رفعها عن الأرض وحملها إلى الداخل، إلى غرفة أنزلها فيها فوق سرير.. وقال بتردد:

ـ أريد أن أكون حنوناً معك.. وأن تجري الأمور ببطء.. لكنني لا أستطيع.

أحست وكأنها ترمي نفسها في دوامة، كمن تركب إعصاراً، كمن ترتفع إلى سماء منتصف الليل الشفافة على أجنحة من نار.

فيما بعد، وحين استيقظا على سماء تتلألأ فيها النجوم الساطعة.. قال لها متكاسلاً:

ـ أرجو أن أكون آخر أمير لأليريا.. إذا سار كل شيء على ما يرام، سيتولى الشعب مصيره قبل أن أموت، وسيتمكن أولادنا من أن يفعلوا ما يحلو لهم.

وتساءلت لانث حول إمكانية ذلك. إذ بدا لها أن ولاء الأليريين للأسرة الحاكمة لا يمكن أن ينتهي في جيل واحد.

قالت: «أنا لست قلقة حول هذا. فجأة، لم أعد أهتم كثيراً بالمستقبل. فالحاضر مثير بما يكفي».

استلقى دون حراك.. وأحست بدقات قلبه تتسارع تحت خدها.. قال

دون أن يلين:

ـ توقفي عن إغوائي.. أحتاج أن أقول هذا.. أعرف أن زواجك مني تغيير ضخم، يبعدك عن عملك. لكن، على الأقل، يمكن أن تدرسي الدلافين هنا.

مررت أصابعها بخفة على صدره، وقالت بهدوء:

ـ أليكس.. لقد حصلت عليك أنت.. والدلافين شيء إضافي جميل.. لكن، حتى وإن لم يكن هناك أي منها لكنت بقيت.. كان من الممكن أن أدير ظهري لك ولأليريا، وأن أبقى في خليج الجزر.. لكن الحب يعني أن تختار شخصاً.. وعادة، حين تختار، يجب أن تتخلى عن أشياء أخرى.. أنت فعلت هذا حين قررت العودة إلى أليريا.. وقراري بالبقاء معك كان سهلاً، فقد أدركت أنني لا أستمتع بالحياة التي أعيشها من دونك، وأنا أحبك.. المسألة واضحة جداً.. والدك أحبك وأحب أمك بما يكفي ليضحي بحياته من أجلكما.. وأنا يساورني الشعور نفسه.

تسارعت أنفاسه.. وابتلت عيناه، فأخفت رموشه الكثيفة اللامعة اللون الأزرق الساحر..

ضمها إليه بقوة.. وبقي صامتاً للحظات طويلة.. حين تكلم أخيراً، كان صوته منخفضاً ومتوتراً:

ـ حياتي لا تعني شيئاً.. لا شيء.. من دونك.. لطالما آمنت بالحب.. أبي وأمي تحابا ولقد ضحى بحياته من أجلنا.. وأنا مستعد للموت من أجلك.. لكن، ولسبب ما، لم أكن أتوقع أن أجد حباً مثل حب أبي وأمي.

ضمت وجهه بين يديها، وقالت: «أحبك أكثر من أي شيء آخر في حياتي.. أنا لم أكن أؤمن بالحب فعلاً.. عرفت أنه موجود.. والدي وزوجته سعيدان جداً معاً، وكنت أحسد تريسيا لأن والديها كانا سعيدين معاً. لكنني كبرت وأنا أعتقد أن الإنسان يدفع ثمن الحب غالياً، إلى أن التقيتك.. حين سافرت، أدركت أنني على استعداد لدفع الثمن».

أدار رأسه يقبل يدها:

ـ كنت أعرف أن هناك خطب ما. لقد كنت مراوغة جداً.. أثرت إحساس الصياد في داخلي منذ البداية.. لكنني كنت أعرف أنني لا أستطيع الاستمرار.. كنت جميلة إلى حد كبير، إنما ضعيفة. وكان عليّ أن أقرر ما إذا كنت سأعود إلى أليريا أم لا.. اتصل بي أناس كانوا مقتنعين بأن البلاد لن تلملم جراحها إلا حين أحكمها.. لكن لم أكن راغباً في التخلي عن كل ما عملت جاهداً لتحقيقه. ووقفت أنت في طريقي، واعترضت أفكاري، ودفعتني إلى الجنون بعينيك الذهبيتين وبشرتك البيضاء، وشعرك العسلي.

قالت ببطء، وقد صدمتها المشاعر الثائرة في صوته:

ـ لم أكن أعرف.. كنت واثقاً جداً من نفسك ومسيطراً على أعصابك.

ـ حاولت.. لم أصب من قبل بمثل ذلك الإحباط الذي التهم شجاعتي، وظلل أحلامي.. ودفعني إلى الجنون حتى لم أعد أستطيع أن أفكر، لم أعد أستطيع أن آكل دون أن أرى وجهك وأن أسمع صوتك.. حاولت الابتعاد، وأرسلت مارك ليتفحص أحوالك حين كان الإعصار قادماً. لكن، دون فائدة، كان عليّ أن أرى بنفسي، وأنت كنت باردة بشكل لعين!

قالت: «كنا كلانا نتهرب، أدركت أن مشاعري لم تكن من طرف واحد، لكنني لم أكن أرغب في أن أحب أحداً».

ـ ولا حتى خطيبك السابق؟

ـ لقد أحببت كريغ.. لكنه حب ضعيف.. كنت خائفة جداً من أن أتألم، لذا وضعت حدوداً لنفسي.. كان رجلاً مرحاً، كثير الضحك، ولا أظنه عرف كم كان حبي له محدوداً.

قال باكتئاب: «يا للمسكين..».

هزت لانث رأسها: «أرتجف الآن حين أفكر فيه.. لأنني كنت سأتزوجه، وسيتغير كل شيء بعد وقت قصير».

ـ لو أنك تزوجته، لوجدتك، وخطفتك منه.

رمقته لانث بنظرة حادة. إن مثل هذا التصرف مقبول في العصور

الوسطى، لكن ليس في أيامنا هذه، ومع ذلك فقد مات التعليق على شفتيها.. وفكرت في أنه كان ليفعل ذلك.

قالت: «هذا غير مناسب سياسياً، وتعرف ذلك.. لكن، لدي إحساس، بأنني كنت لألحق بك إلى آخر العالم. لهذا كنت قلقة جداً حين التقيت بك.. لأن حدسي أنذرني بأن لك القدرة على جعلي أحبك، ودون تحفظ. لقد حطمت الدرع الذي لطالما استخدمته، فلم يعد لدي ملاذ أختبىء فيه من قلبي.. ولهذا السبب أعتقد أنني تركت بيل يقنعني بالمجيء إلى هنا.. أوه.. قلت لنفسي إنني أحتاج إلى نوع من النهاية.. لكنني بساطة أردت أن أكون قربك».

ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «وأنا عانيت الأمرّين لأغويك بالمجيء إلى هنا.. خططت لأن أتحرك ببطء، ومكر.. ولأن أصطادك بسهام ذهبية، وشباك حريرية..».

ـ وبدلاً من ذلك كنت فظاً.. وتركت القصر كي..

ـ كي لا أحطم الباب وأدخل عليك كالمجنون.

وضحك لاحمرار وجهها، وأكمل: «أما بالنسبة للفظاظة.. فأنا لم أكن أتوقع رؤيتك تلك الليلة.. حتى تلك اللحظة، كنت أظن أنني قادر على السيطرة على نفسي.. لكن نظرة واحدة إلى وجهك المتعب، وأردت أن أمحي كل الإعياء عنه، وأن أحملك إلى فراشك لترتاحي».

ـ ظننتك تكرهني.

ـ كنت قد قررت أن أدعك وشأنك حتى تري بنفسك كيف نعيش، أي نوع من الناس نحن، وحتى تكوّني فكرة عما إذا كنت قادرة على قضاء بقية حياتك هنا.

تمتمت: «أنت شريف جداً».

ـ بصعوبة.. نواياي النبيلة لم تدم أكثر من شهر، حين التقينا على شاطىء البحيرة، تلاشت الأفكار النبيلة والقدرة على الانتظار.. كما لم تقصي شعرك.. واعتقدت أن هذه علامة شعاع صغير من الأمل.

همست: «كانت فعلاً إشارة».

وقبلت رموشه، ثم وجهه الجميل، وداعبت أذنه بأناملها.

اشتد طوق ذراعه حولها: «إذا ما استمريت هكذا.. فيا ويلك.. لقد اعتقدت أنني لن أنجب أولاداً، وسيضطر الأليريون إلى إيجاد عائلة أخرى.. لكنني أريد أطفالك».

تأكدت لانث من أنها تحتل المكانة الأولى في قلبه.. فأحنت رأسها تقبله، وسألت ببراءة:

- إذا استمريت بماذا؟ أما بالنسبة للأولاد.. فسيجدون طريقهم الخاص.. كما فعلنا نحن.

من الآن وصاعداً، سترتبط حياتها بحياة أليكس، في عقدة يستحيل حلها.. ستكون حياتهما كقماش مخبوك، وستتحول مع الأيام إلى سجادة كبيرة رائعة وجميلة، محبوكة بالحب والمرح والعمل الجاد، وبخيوط الرغبة المشعة والحب المشبوب.

وقبلته مجدداً مبتسمة، فقال وعيناه تلمعان بسعادة:

- هذا يكفي.. يجب أن أرد عليك الآن.

وفعل، فتنهدت مستسلمة للشوق الذي سيبقى مشتعلاً فيها إلى الأبد.. وفكرت في أنهما سينالان كل ما يريدانه، طالما بقيا معاً.

***